لا إله إلا الله

عقيدة وشريعة ،، ومنهاج حياة

لفضيلة الشيخ

محمد قطب



بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

صدق الله العظيم

مقدمة

كتبت من قبل أكثر من مرة عن "لا إله إلا الله".. ما مدلولها الذي جاءت به من عند الله؟ وكيف فهمها الجيل الذي رباه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على مفهومها الصحيح؟ وكيف انحسر مفهومها خلال الأجيال المتعاقبة حتى صارت في حس كثير من المتأخرين مجرد كلمة تنطق باللسان؟ وكيف ينبغي أن تعاد إليها شحنتها الكاملة وحيويتها الشاملة، لكي تعود الأمة إلى حقيقة الإسلام، وتحقق رسالتها التي أخرجها الله من أجلها، فيتحقق لها موعود الله؟:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[1].

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[2].

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[3].

كتبت عن ذلك مبكراً في كتاب "هل نحن مسلمون"[4] ثم في كتاب "واقعنا المعاصر"[5] وكتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح"[6] ثم مرة أخرى في كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر"[7].

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) صدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م).

(٥) صدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

(٦) كتب سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) ونشر سنة ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

(٧) صدر سنة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م).

ولكني ما زلت أجد في نفسي رغبة في مزيد من الحديث عن "لا إله إلا الله"؛ لأن ما كتبته كله لم يستنفد كل ما أريد أن أقوله في مدلول لا إله إلا الله، ومقتضياتها، وواجب الصحوة الإسلامية تجاهها.. ولست أزعم بطبيعة الحال أن ما أضفته في هذه الصفحات يستنفد كل ما ينبغي أن يقال في هذا الصدد، فما زال الباب مفتوحاً، وسيظل مفتوحاً أبداً لكل من يفتح الله عليه بجديد في هذا الموضوع الهائل العظيم.. وإنما حسبي في هذه الصفحات أن أركز على بعض نقاط لم تأخذ حظها من التركيز فيما كتبت من قبل، أو ألفت النظر إلى مزيد من جوانب الشمول في مفهوم لا إله إلا الله لم تكن قد تبينت من قبل.

وإن الذي دفعني إلى معاودة الكتابة في مفهوم لا إله إلا الله هو مواقف كثير من الناس في هذه القضية، بعضهم من الدعاة الإسلاميين أنفسهم، وبعضهم من الشباب المتعجل، فضلاً عن بعض العلمانيين الذين يتظاهرون بالدعوة إلى الإسلام، والدفاع عن قضايا المسلمين، ثم يبثون من الأفكار ما يضللون به الناس؛ ليبعدوهم عن خط الإسلام الأصيل.

فأما العلمانيون فموقفهم واضح مهما حاولوا أن يتزيوا بزي الإسلام، سواء منهم من أراد حصره في الاعتقاد القلبي وحده، أو كان من "المتساهلين!" الذين قد يسمحون -على مضض- بشيء من الشعائر التعبدية إلى جانب الاعتقاد القلبي بشرط ألا يتجاوز الأمر -في جميع الأحوال- ذلك النطاق المحدود إلى أمور الحياة الواقعية، والسياسة بصفة خاصة، فهي أخص ما يجب أن يُبْعَدَ عن الدين، ويبعد الدين عنه! منعاً من "التطرف" ومنعاً من الرجوع إلى "الأصول" التي أنزلها الله؛ ليلتزم بها عباده المؤمنون!

وأما الإسلاميون -والشباب المتعجل خاصة- فكثير منهم قد دفعته ظروف الصراع الفكري الدائر بين الإسلام والمذاهب العلمانية إلى التركيز على قضية تحكيم الشريعة، على أنها هي التي تنقص المجتمعات الحالية؛ لتصبح مجتمعات إسلامية، وحتى هؤلاء فكثير منهم تنحصر قضية الشريعة في حسهم في وجوب تطبيق الحدود، ولا يلتفتون إلى سعة الشريعة وشمولها آفاقاً كثيرة أخرى غير تطبيق الحدود، فاعتقدوا أن الناس بمجرد تطبيقهم لتلك الحدود يكونون قد استكملوا كل ما يلزمهم؛ ليعيشوا حياة إسلامية صحيحة، ولو كانت مناهج تعليمهم ووسائل إعلامهم وأنماط حياتهم على ما هي عليه اليوم، أو بتعديلات "بسيطة" تضفى عليها صفة الإسلام! ومروا مروراً سريعاً على الجانب الآخر من "الحاكمية" المتعلق بالاعتقاد والعبادة.. أو بعبارة أخرى ركزوا كثيراً على شرك التشريع، ومروا سريعاً على شرك

الاعتقاد والعبادة، مع أهمية الجوانب الثلاثة كلها في هذا الدين، ودخولها كلها في مفهوم لا إله إلا الله، ووقوع الخلل فيها جميعاً في حياة "المسلم المعاصر"!

وليس التركيز على أحد الجوانب أكثر من غيره أمراً يعاب على أحد من المفكرين؛ أو الدعاة، إذا التفتوا إلى الجوانب الأخرى وأعطوها حقها من البيان، فهذا التركيز أمر بشري، يقع من المفكرين والدعاة بغير قصد منهم، بحكم أنهم يجابهون مشاكل معينة تبرز في عصرهم، فيجاهدون لرد الناس فيها إلى حكم الله فيركزون عليها أكثر.. فقد ركز ابن تيمية رحمه الله كثيراً على قضية الصفات؛ لأن الفرق الضالة كانت قد انحرفت فيها انحرافاً شديداً أفسد العقيدة، فكانت تلك هي "أزمة العصر" في زمنه، ولكنه وفّى بقية الجوانب حقها في كتبه وفتاواه، وركز الشيخ محمد بن عبد الوهاب على قضية الأولياء والأضرحة وعبادة القبور؛ لأنها كانت "أزمة العصر" في زمنه، ولكنه تحدث عن بقية الجوانب فوفاها حقها في مختلف كتبه، وركز سيد قطب على حاكمية الشريعة؛ لأنها "أزمة العصر" في الوقت الحاضر، ولكنه وفّى الحديث عن الجوانب الأخرى خاصة في "الظلال" و"خصائص التصور الإسلامي" و"مقومات التصور الإسلامي". ولكن الذين يتتلمذون على فكر أولئك الشيوخ ينسون! فقد ركز كثير من تلاميذ ابن تيمية على قضية الصفات وحدها كأنما هي وحدها "العقيدة"! وركز كثير من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب على شرك القبور وحده كأنما هو وحده الشرك! وركز كثير من تلاميذ سيد قطب على حاكمية الشريعة وحدها كأنما هي وحدها هي أصل الدين! والأولى بهؤلاء جميعاً أن يعاودوا التتلمذ على فكر شيوخهم كله، ولا يقتصروا منه على الجوانب التي ركز عليها شيوخهم لظروف عصرهم الخاصة!

* * *

والذي أردت إبرازه في هذه الصفحات أن "لا إله إلا الله" لا تنحصر في تلك المجالات التي تعودنا أن نتحدث فيها، سواء مجال الاعتقاد، أو الشعائر التعبدية، أو تحكيم الشريعة، على كل الأهمية التي جعلها الله لهذه المجالات الثلاثة -إذ جعل نقضها أو نقض أي واحد منها نقضاً لأصل لا إله إلا الله -إنما هي -كما أنزلها الله- شاملة شمولاً حقيقياً لكل مجالات الحياة، ما كبر منها وما صغر، وما بدت صلته ظاهرة بلا إله إلا الله، وما خفيت صلته على بعض الناس، أو على كثير من الناس! وتكفي هذه الآية الكريمة وحدها للدلالة على ذلك:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ...)[1].

وأننا لا نستطيع أن نزعم أننا وفينا لا إله إلا الله حقها -وإن اعتقدنا الاعتقاد الصحيح، وإن نجونا من الوقوع في شرك العبادة، وإن حكمت محاكمنا بشريعة الله -إذا كنا متخلفين علمياً، أو متخلفين اقتصادياً، أو متخلفين حضارياً[2]، أو متخلفين أخلاقياً، أو متخلفين اجتماعياً، أو متخلفين فكرياً ثم سكتنا عن ذلك ولم نعمل على إزالته.. لأن هذه الأمور كلها من مقتضيات لا إله إلا الله، ولله ولرسوله في شأنها تعليمات واضحة، ملزمة للأمة المسلمة، سواء أكانت "فروض" عين، أو "فروض" كفاية، فهي لا تسمى "فروضاً" إلا إذا كانت من صلب الدين، ومن مقتضيات لا إله إلا الله[3].

وإن كثيراً من "الإسلاميين" ليسألونني: إلى متى نظل نتحدث في لا إله إلا الله؟ أما آن الأوان أن "ننتقل" إلى المرحلة التالية.. مرحلة "الحلول العملية"؟!

وربما كان هذا التساؤل هو الدافع الأول لهذا الكتاب!

فالقضية أولاً ليست قضية "التحدث" عن لا إله إلا الله! إنما التحدث عنها وعن مقتضياتها هو الخطوة الأولى في الطريق الطويل، الذي سلكه من قبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويسلكه الدعاة من بعده. ويأتي بعد ذلك تربية الأمة على هذه المقتضيات، بدءاً بتربية قاعدة صلبة تكون نموذجاً لبقية الأمة تهتدي على ضوئه. وهذا ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عاماً في مكة، وعشر سنوات في المدينة، وما يجب أن يفعله الدعاة من بعده، وهو أمر لم يتم بعد، ويحتاج إلى أمد لتحقيقه، وجهد بالغ للقيام به، ولا ينقطع "الحديث" في أثنائه عن مقتضيات لا إله إلا الله؛ لأن القرآن الكريم لم ينقطع الحديث فيه عن لا إله إلا الله في كل مراحل التربية والإعداد، بل في كل المراحل على الإطلاق! ولأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكف عن الحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله حتى لقي ربه!

---

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

(٢) سيأتي الحديث في أثناء الكتاب عن المفهوم الإسلامي للحضارة.

(٣) من العجب أن الغزالي في القرن الخامس الهجري كان يتحدث عن فروض العين وفروض الكفاية وعلاقاتها بأصل الدين، ونحن في القرن الخامس عشر نجادل في شمول لا إله إلا الله للعلم والحضارة والقوة الحربية والخبرة التقنية!.

والقضية ثانياً أن "الحلول العملية" التي يتحدثون عن ضرورة "الانتقال" إليها، ليست شيئاً قائماً بذاته خارج دائرة لا إله إلا الله، حتى نحتاج أن "ننتقل" من لا إله إلا الله؛ لنتوجه إليها بالدراسة والبحث! إنما هي من صميم لا إله إلا الله، ومن ثم لا نحتاج أن ننتقل من لا إله إلا الله؛ لنتوجه إليها! بل نحن دائماً –أياً كان بحثنا وأياً كان توجهّنا –في داخل الدائرة الشاملة– دائرة لا إله إلا الله– لا نخرج منها إلى غيرها؛ لأنه لا يوجد غيرها في دين الله ولا في واقع الحياة، إذ أنه لا شيء يمكن أن يوجد خارج "صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي" التي هي بعينها دائرة لا إله إلا الله!

إنما الذي يمكن أن يحدث في الحياة الواقعة أن ننتقل من مجال من مجالات لا إله إلا الله إلى مجال آخر، أو من طور من أطوارها إلى طور آخر، كما انتقلت الجماعة الأولى من طور الجماعة المستضعفة في مكة إلى الجماعة الممكنة في المدينة، إلى الدولة المتمركزة في المدينة، إلى الدولة الشاملة للجزيرة العربية، إلى الدولة الممتدة في الأرض، وكما انتقلت من طور ترسيخ العقيدة في نفوس الأفراد إلى طور قيام التجمع الحركي، إلى طور مواجهة هذا التجمع للجاهلية من حوله، إلى طور التنفيذ العملي للمنهج الرباني في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والداخلية والخارجية، والسلمية والحربية.. ولكنها في جميع الأحوال كانت داخل دائرة لا إله إلا الله، لا "تنتقل" منها إلى غيرها، ولا تتوقف كذلك عن الحديث الدائم عن مقتضياتها!

* * *

ولقد غلب على حس كثير من الناس في واقعنا المعاصر أن قضايا العلم والحضارة و"التكنولوجيا" والأدب والفن والفكر والاجتماع والسياسة، هي قضايا "موضوعية" بحتة، أو "فنية" بحتة، أو حتى قضايا "علمانية" بحتة خارجة عن إطار الدين، يستوي فيها المؤمن والكافر؛ وأن سعي الأمة الإسلامية إلى حيازة التقدم فيها يجب أن يكون موضوعياً بحتاً لا علاقة له بالعقيدة، إنما ينبعث فقط من واجب "إزالة التخلف" و"اللحاق بركب الحضارة" والسعي إلى إيجاد "دولة حديثة" و"معايشة العصر" الذي نعيش فيه!

ويمكن إرجاع ذلك الأمر إلى سببين رئيسيين، أو ثلاثة.

السبب الأول هو تأثير الغزو الفكري على "المسلم المعاصر".. فأوربا –التي يتخذها "المسلم المعاصر" هادياً له ودليلاً في قضايا العلم والحضارة والتكنولوجيا– قد حصرت الدين

في العقيدة وحدها ثم نبذته، وتناولت هذه الأمور كلها بروح "علمانية" تبعدها إبعاداً كاملاً عن إطار الدين.

والسبب الثاني هو أن الأمة الإسلامية -في تخلفها العقدي- ظلت تنحسر بلا إله إلا الله حتى أفرغتها من مضمونها الحقيقي، وأحالتها مجرد كلمة تنطق باللسان، أو على الأكثر وجداناً يصاحب الكلمة، وشعائر تعبدية، هي -في حسهم- أقصى ما تتحقق به لا إله إلا الله في واقع الحياة.

وبالتأثيرين معاً -تأثير الغزو الفكري وتأثير التخلف العقدي- تخرج أمور العلم والحضارة والقوة التكنولوجية وغيرها من مجال لا إله إلا الله، ويحتاج الأمر في حس الناس -إذا أردنا أن نحرز شيئاً من التقدم في تلك المجالات- أن "ننتقل" من لا إله إلا الله إلى تلك المجالات!

أما السبب الثالث الذي يمكن أن يضاف إلى السببين السابقين وإن كان من نتاجهما في الحقيقة، فهو الوهم الذي يتردد صداه عند كثير من الناس، من أن "ثورة التكنولوجيا" قد حوّلت العالم إلى "قرية صغيرة"، يجب أن يتعايش سكانها بمفاهيم موحدة، أو متقاربة؛ لكي يتمكنوا من الحياة. ومن ثم يصبح التقدم العلمي والحضاري والتكنولوجي.. الخ، قالباً واحداً، موحد الحجم والصورة والمضمون، ينتجه الغرب الظافر، "وتستورده" بلدان "العالم الثالث" للاستهلاك، لا مناص لها من ذلك ولا خيار!

وكل الثلاثة أوهام وأباطيل..

فمسلك أوروبا الخاطئ تجاه الدين ليس هو النموذج الذي يحتذى.. وقد انهار نصف الجاهلية المعاصرة المعادية للدين، والنصف الآخر في طريقه للانهيار.. ومن الحماقة بالنسبة إلينا أن نتشبث بالنموذج المنهار ونحن نشهد انهياره أمام أعيننا.. بل إنه من الحماقة أن نتشبث بذلك النموذج ولو كان ثابتاً ممكناً إلى يوم القيامة، ما دام الله قد أخبرنا أنهم قد خسروا الآخرة بكفرهم، فكيف وقد خسروا الدنيا كذلك، ومنّ الله علينا بأن أرانا الآية الكبرى في انهيارهم: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[1].

والتخلف العقدي الذي أخرج "فروض الكفاية" بل بعض "فروض العين" ذاتها من دائرة لا إله إلا الله، هو من الأمور التي قامت الصحوة الإسلامية لتصحيحها، فلا ينبغي

(١) العنكبوت: ٤٣.

"للإسلاميين" بصفة خاصة أن يقعوا فيها، ولا ينبغي لهم أن يتضجروا من الحديث عن "لا إله إلا الله"، وشمولها لكل مجالات الحياة، وعن معاودة الحديث في هذا الشأن والاستمرار فيه، على الأقل حتى يصبح واقعاً ملموساً يخرج الأمة من تخلفها العقدي، الذي ترتب عليه في حياة الأمة كل ما ترتب من تخلف حضاري وعلمي وتكنولوجي، وفكري وأخلاقي.. وفي كل الميادين. وإن كان ربنا قد علّمنا في كتابه الكريم أن هذا الحديث لا يكف أبداً ولو تحققت كل مقوماته واقعاً ملموساً، فقد نزل في المدينة –بعد قيام المجتمع المسلم والدولة المسلمة وتحقق المنهج الرباني في أمة قائمة بالفعل– قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ)[1] وفي ذلك دلالة واضحة على أن الحديث في "لا إله إلا الله" لا ينقطع أبداً ولو تحققت مقوماته في واقع فعلي، لأنه يحتاج دائماً إلى تذكير، ويحتاج دائماً إلى ترسيخ!

وأما القرية الواحدة فما أعجبها فِرية!

تلك القرية التي يقوم الوثنيون فيها والمشركون واليهود والنصارى بتذبيح المسلمين في وحشية يتعفف عنها كثير من الوحوش.. في البوسنة والهرسك، وبورما، والفلبين، والهند، وكشمير، وفلسطين، وكل مكان على ظهر الأرض! فما نصيبنا نحن المسلمين في تلك القرية إلا التذبيح والتقتيل لمجرد كوننا مسلمين؟ وصدق الله:

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[2].

(وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ)[3].

فهل يريد أصحاب فكرة "الفرية الواحدة" أن نرتد عن ديننا؛ لننسق أمورنا مع أصحاب السلطان في القرية؟ أو ليست هذه حقيقة دعوتهم لنا أن نأخذ حضارة القوم وعلومهم وتقنياتهم على صورتها التي يقدمونها بها؛ لنتعايش معهم؟ أي نمسخ أنفسنا ونتخلى عن مقوماتنا التي ميزنا الله بها، من أجل أن نحصل على منزل "بالإيجار" من جبابرة القرية الظالمة المتعصبة ضدنا بعصبيات الجاهلية؟!

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) البقرة: ٢١٧.

وأين هي الوحدة المزعومة في تلك القرية؟!

ولماذا يباح لفرنسا -أو فرنسا وألمانيا، أو أوروبا المتحدة- أن تناوئ أمريكا في داخل "القرية الواحدة"، ويباح للصين أن تسكن خارج القرية، ويباح لليابان أن تسكن ضاحية خاصة على مشارف القرية، ويطلب من المسلمين وحدهم أن يتنازلوا عن ذاتيتهم، لكي يساكنوا أصحاب القرية الظالمين؟!

هذا من جهة التعايش مع سكان القرية..

ومن جهة أخرى فإن الظن بأن "التكنولوجيا" تصنع الإنسان، إنما هو استخذاء من "إنسان العصر" أمام "المادة" بعد أن فقد ذلك الإنسان مقومات إنسانيته!

لقد خلق الله الإنسان؛ ليكون هو السيد في الأرض بإذن من الله:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[1].

وكلفه عمارة الأرض، ويسّرها له، وسخر له من أجل القيام بهذه المهمة ما سخّر من طاقات السموات والأرض: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[2].

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)[3].

وكل "التكنولوجيا" التي صنعها الإنسان كانت من أجل تحقيق عمارة الأرض؛ ليكون هو السيد فيها بإذن ربه.. ولكن الإنسان المعاصر استخذى أمام ما صنعه بيديه، فصار عبداً للآلة، كما كان في الجاهليات الوثنية القديمة ينحت الصنم بيديه ثم يعبده!

وهكذا الإنسان حين يفقد صلته بالله، فإنه يستعبد نفسه للآلهة المزعومة، ويفقد حريته إزاءها، فتحكمه الأوهام والأهواء والشهوات، سواء كانت أوهامه الذاتية، وأهواءه وشهواته الذاتية، أم كانت مفروضة عليه من الذين استكبروا في الأرض من أصحاب السلطان.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) هود: ٦١.

(٣) الجاثية: ١٣.

أما صاحب العقيدة فلا تستعبده الآلة، ولا تستعبده الأهواء والشهوات، لأنه يعبد الله وحده بلا شريك، فيتحرر بذلك من ذل العبوديات الزائفة لغير الله.

أفيريد الذين يرغبون في مساكنة أصحاب القرية الظالمة أن تستعبدنا "ثورة التكنولوجيا" كما استعبدتهم وتأكل إنسانيتنا كما أكلت إنسانيتهم، من أجل أن نحصل على نصيب من "التقدم" و"الحضارة" وننفض عن أنفسنا وصمة التخلف، ونعيش "بروح العصر"؟

أما أننا متخلفون في جميع الميادين.. فنعم!

وأما أن طريقنا لإزالة التخلف هو اتباع منهجهم.. فلا!

إنما طريقنا أن ننطلق من "لا إله إلا الله"، ثم نسعى لاكتساب كل أدوات التقدم العلمي والتكنولوجي بعد إخضاعها لمقتضيات لا إله إلا الله، فنكون أولاً أحراراً في الأرض، مستمدين تحررنا من عباده الله وحده بلا شريك، ثم نكون بعد ذلك هداة لسكان القرية الظالمة، نهديهم إلى سبيل الرشاد، بدلاً من أن نكون تبعاً لهم فيسحقوننا بأقدامهم كما يفعلون الآن.

وفي جميع الأحوال لا بد لنا بادئ ذي بدء أن نؤمن إيماناً راسخاً أن لا إله إلا الله بمقتضياتها الشاملة، هي -دون غيرها- التي تحقق الفلاح والخير في الدنيا والآخرة بالمعايير الحقيقية الصحيحة، ولا بد لنا ثانياً أن نتحرك نحو الإصلاح المنشود بدافع من تحقيق لا إله إلا الله في واقع الأرض، وليس انطلاقاً من أي دافع آخر، قد يختلط فيه الإيمان بلون من ألوان الشرك كما قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)[1]. ولا بد لنا في الوقت ذاته أن نقوم بما نقوم به منضبطين بالضوابط الشرعية التي تفرضها -وتبينها- "لا إله إلا الله" كما وردت في كتاب الله:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[2].

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

وبهذا وحده نحقق الوجود الذي نرجوه للأمة الإسلامية، ونحقق الخيرية التي كتبها الله لهذه الأمة حين تقوم برسالتها على وجهها الصحيح:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[1].

ومن أجل بيان هذه الحقيقة، حقيقة الشمول في المنهج الرباني المتمثل في لا إله إلا الله، كتبت هذه الصفحات..

اللهم إن يتحقق بها شيء من النفع فهو فضلك الذي أنعمت به علي، وإلا فبحسبي نيتي أحتسبها عند الله:

(إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)[2].

محمد قطب

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) هود: ٨٨.

تمهيد

كانت دعوة الرسل جميعاً إلى أقوامهم دعوة واحدة، هي دعوة التوحيد: لا إله إلا الله.. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

وفي أكثر من سورة من سور القرآن (وبخاصة سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء) يأتي تسلسل مقصود لتاريخ الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم، كل رسول يقول الكلمة ذاتها، ويمضي، فيجيء الرسول الذي يأتي بعده فيقول ذات الكلمة، حتى لكأنهم رسول واحد على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)[1].

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..)[2].

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..)[3].

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..)[4].

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ..)[5].

وتشير الآية الكريمة من سورة الحاقة إلى أن الأقوام كلهم عصوا "رسول ربهم" والمقصود بطبيعة الحال أن كل أمة عصت رسولها الذي أرسل إليها، ولكن توحيد لفظ الرسول له دلالة واضحة: أن الرسل جميعاً كأنهم رسول واحد؛ لأنهم كلهم جاءوا بدعوة واحدة، لا اختلاف فيها:

---

(١) هود: ٢٥-٢٦.

(٢) هود: ٥٠.

(٣) هود: ٦١.

(٤) هود: ٨٤.

(٥) الأنبياء: ٢٥.

(وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ، فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً)[١].

ويلفت النظر في هذه الآيات -ومثلها في القرآن كثير- أن الرسل الكرام لم يرسلوا إلى أقوامهم ليقولوا لهم إن هناك إلهاً.. فالفطرة تعرف ذلك دون رسول! ولا ليقولوا لهم: اعبدوا الإله الذي تعرفون وجوده، فالفطرة تتوجه إلى عبادة الإله الذي تعرفه، تلقائياً بغير رسول، وإن غشيتها الغواشي واجتاحها الضلال!

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)[٢].

إنما كانت مشكلة الجاهليات كلها أنها تشرك مع الله آلهة أخرى، وتجسد الإله في صورة محسوسة تلمس وترى، فيجيء الرسل فيدعون قومهم إلى عبادة الله الواحد، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

وحتى الدهريون الذين قالوا: (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)[٣] -يقصدون بالدهر مرور الزمن، كما قال المتنبي في شعره: "إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً" يقصد أن شعره باق على الزمن ترويه الأجيال المتعاقبة- حتى هؤلاء لا نستطيع أن نجزم من لفظ الآية أنهم أنكروا وجود الله.. فقد نسبوا الإهلاك للدهر -بمعنى مرور الزمن كما أسلفنا -فآمنوا- كالجاهلية المعاصرة- بالأسباب الظاهرة، وجعلوها هي الفاعلة بذاتها، ولكن هذا لا يلزم منه حتماً أنهم ينكرون وجود الله. فكثير من مشركي الجاهلية المعاصرة اليوم لا ينفون وجوده الله، ولكنهم ينسبون الفاعلية في الكون "للقوانين الطبيعة"! ويتحدثون عنها كأنما هي ذات قوة حتمية!

أما الذي نجزم به من كلام أولئك الدهريين فهو أنهم ينكرون البعث إنكاراً جازماً ويقولون "ما هي إلا حياتنا الدنيا"، وهم في هذا لا يختلفون عن سائر مشركي العرب الذين

---

(١) الحاقة: ٩-١٠.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) الجاثية: ٢٣.

كانوا ينكرون البعث مع أنهم مؤمنون بوجود الله. فقد أثبت القرآن عليهم إقرارهم بوجود الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الخالق، وهو رب العرش الكريم، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء:

(قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)[1].

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[2].

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[3].

ومع إقرارهم بهذا كله فقد كانوا لا يؤمنون بالبعث، بل لا يكادون يتصورون وقوعه! وكانوا يعجبون من الرسول –صلى الله عليه وسلم–؛ لأنه يحدثهم عنه، ويقول بعضهم لبعض.

(هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ)[4].

وإذا افترضنا جدلاً أن الدهريين كانوا ينكرون وجود الله، مستدلين بكونهم ينسبون الإهلاك للدهر لا لله سبحانه وتعالى، وهي دلالة غير جازمة إذا نظرنا إلى أحوال كثير من الناس في الجاهلية المعاصرة، فمن الواضح من تتبع آيات القرآن ومن استقراء التاريخ أنهم لم يكونوا هم الصورة الغالبة للجاهليات، إنما كثر هذا النوع المنكر لوجود الله في الجاهلية المعاصرة لظروف غير طبيعية أشرنا إليها في غير هذا الكتاب[5]. وقد رأينا –على سبيل المثال– أنه بمجرد انهيار الشيوعية عاد الناس في أوربا إلى دينهم– وإن كانوا فيه على ضلالة–

---

(١) المؤمنون: ٨٤–٨٩.

(٢) العنكبوت: ٦١.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

(٤) سبأ: ٧–٨.

(٥) اقرأ إن شئت فصل "الإلحاد" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

مما يدل على أن الإلحاد الذي نشرته الشيوعية لم يكن أصيلاً في النفوس، إنما كان عارضاً فرضته الدولة على الناس بالحديد والنار والتجسس!

* * *

الضلال الأكبر الذي تقع فيه الجاهليات كما أسلفنا هو الشرك، وتجسيم الإله في صور محسوسة، بالإضافة إلى إنكار البعث[١]. ويرسل الله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ليرتفعوا بالبشرية إلى مستوى التوحيد، وتنزيه الله -عز وجل- عن الشبيه..

ولقد خلق الله الناس على الفطرة موحدين:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٢].

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[٣].

فالفطرة تعرف التوحيد ولكن البيئة المنحرفة هي التي تفسد الفطرة.. وتلك قصة الإنسان على الأرض..

الفطرة في أحسن تقويم.. والبيئة المنحرفة تردها أسفل سافلين.. إلا أن تكون من المؤمنين:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)[٤].

---

(١) ليس كل الجاهليات كانت تنكر البعث. فقد كانت الجاهلية الفرعونية تعرفه وتعرف تفاصيل كثيرة عنه، مما يرجح أنه أرسل إليها رسول فنسيت تعاليمه ولكنها ظلت تذكر البعث، وإن اختلط علمهم به بجهل الجاهلية، فكانوا يحنطون الجثث لتظل سليمة إلى يوم البعث، لتجدها الروح وتحل فيها مرة أخرى!

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) متفق عليه.

(٤) التين: ٤-٦.

إن الإنسان الذي أسجد الله له الملائكة وفضله على كثير ممن خلق، قد ميزه الله بمزايا كثيرة منها القدرة على الإيمان بالغيب، والإيمان بما لا تدركه الحواس، فصار يؤمن بالله على الغيب، ويؤمن به سبحانه على غير شبيه مما تدركه الحواس:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[1].

(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[2].

ولكن الإنسان لا يحافظ على مزاياه تلك إلا أن يظل على فطرته السوية، لا تفسده البيئة المنحرفة. فإذا أفسدته البيئة ظل يهبط من القمة العالية التي خلقه الله عليها، حتى يغشّى روحه الضباب والغبش، فتفقد صفاءها الذي خلقها الله عليه، وتعجز عن الإيمان بالغيب، والإيمان بما لا تدركه الحواس، فتطلب إلهاً محسوساً وتراه وتلمسه، وتتعبد إليه!

أو تهبط هبوطاً من نوع آخر..

إنها -بسبب هذا الغبش الذي يغشّى على صفائها- تستهول المدى الذي "يفصلها" عن ربها فتشعر بالوحشة! فتروح تطلب أنيساً قريباً تأنس إليه، تراه وتلمسه؛ ليكون وكيلاً عن الله، أو شفيعاً يقربها من الله، أو واسطة بين العبد ومولاه! وهي حالة مرضية تصيب الأرواح فتعميها عما كانت تدركه في صحتها، فتقع في الشرك الذي هو السمة العامة للجاهلية.

أو يأتيها الشرك من طريق آخر..

طغاة يتجبرون في الأرض، يستضعفون أولئك الذين غشى الغبش أرواحهم، فيستعبدونهم، فيحلون لهم ويحرمون بغير ما أنزل الله، فيطيعونهم، فيتخذونهم أرباباً من دون الله..

ويبعث الله الرسل ليجلوا عن أرواح البشر غبشها، ويردوها إلى صفائها الفطري، فتؤمن بالله على الغيب، وتؤمن بما لا تدركه الحواس، وتعبد الله وحده بلا شريك، فلا تعتقد في إله غيره، ولا توجه عبادتها لإله غيره، ولا تحل ولا تحرم شيئاً من دونه.

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

ويحتاج البشر في كل مرة إلى معجزة تهزهم.. تهزهم هزة عنيفة تسقط الران الذي غشّى على أرواحهم، فيعود إليها صفاؤها، فتتصل بالله بلا وسيط، وتأنس إليه على بعد "المدى" بين الخالق والمخلوق، فإنه سبحانه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)(١).

وما كان خاتم النبيين –صلى الله عليه وسلم– بدعا من الرسل:

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)(٢).

غير أنه أرسل إلى البشر كافة وكان الرسل قبله يرسلون إلى أقوامهم خاصة، وجاء بالرسالة التي اكتمل بها الدين فلا رسالة بعدها، وكانت معجزته فريدة في بابها: قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

* * *

جاء الرسل كلهم بلا إله إلا الله..

ولكن الكتب السماوية السابقة حرفت، ولم يبق إلا القرآن على حاله كما كان يوم أنزل، وكما هو في اللوح المحفوظ، لأن الله هو الذي تكفل بحفظه، ولم يكل حفظه للبشر كالكتب السابقة:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(٣).

وما ندري كيف كانت "لا إله إلا الله" معروضة في الكتب السابقة قبل تحريفها. ولكنا نراها في القرآن ملء الساحة كلها، مشرقة وضيئة، تدخل إلى النفس من جميع أقطارها، وتخاطب الوجدان والعقل معاً، حتى يمتلئ القلب البشري بلا إله إلا الله.

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأحقاف: ٩.

(٣) الحجر: ٩.

إن الله لم ينزل "لا إله إلا الله"؛ لتكون مجرد كلمة تنطق باللسان. إنما أنزلها؛ لتشكل واقع الكائن البشرية كله، لترفعه إلى المكان اللائق به.. الذي فضله الله به على كثير ممن خلق.. ترفعه من كل ثقلة تقعد به عن الصعود إلى تلك المكانة العالية ومحاولة الاستقامة عليها، سواء كانت ثقلة الشهوات اللاصقة بالطين، أو ثقلة "الران" الذي يرين على الأرواح، أو ثقلة "الضرورات" التي تقهر الإنسان وتذله لطغاة الأرض المتجبرين.. ترفعه فرداً وجماعة وأمة، ليتكون في الأرض المجتمع الصالح الذي يريده الله، وتقوم في الأرض أمة لا إله إلا الله.

ولا يتم هذا كله بكلمة تنطق باللسان.. إنما يتم بحقيقة حية تملأ الكيان البشري كله وتسري في أعماقه، وتنبض نبضاً حياً يحرك كل ذرة فيه، فتنطلق شحنته كاملة، تجتث الفساد من الأرض وتستنبت الخير..

* * *

تعني "لا إله إلا الله" عبادة الله وحده دون شريك، والالتزام بما جاء من عند الله.

فالألوهية في جانب الله تقتضي العبودية في كل من سواه. وإذا انتفت الألوهية عن كل شيء وكل أحد وكل كائن في هذا الوجود كله، وثبتت لله وحده، فمعنى ذلك أن الإله الذي يعبد بحق هو الله، ولا يعبد سواه، لأن كل من سواه ليس إلهاً، فلا تجوز له العبادة التي يجب أن تتمحض لله وحده بلا شريك..

وتلك القضية على بساطتها، هي قضية القضايا في حياة الإنسان.. هي المحور الذي ترتكز إليه حياته كلها، وتقوم عليه.. ولم يكن بسطها في القرآن الكريم -كما أشرت في غير هذا الكتاب[1]- بسبب أن المخاطبين الأوائل بهذا القرآن كانوا مشركين، فقد خوطب بها المؤمنون في المدينة كذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً)[2].

---

(١) في كتاب "دراسات قرآنية" وكتاب "واقعنا المعاصر" وكتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

(٢) النساء: ١٣٦.

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً...)[1].

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)[2].

(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[3].

إنما السبب أن الإنسان عابد بفطرته.. وهو إما أن يعبد الله وحده بلا شريك، وإما أن يعبد آلهة أخرى غير الله، معه، أو من دونه سواء!.

إنه لا يوجد من لا يَعْبُد... وحين يدعي ذلك إنسان، ويتوهم أنه "طليق" من كل عبادة، فهو الذي قال الله عنه:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)[4].

إنه حتى في هذه الحالة "عابد".. ولكنه عابد لغير الله.

وحين يكون الأمر على هذا النحو، فالقضية ليست قضية "العبادة" في ذاتها، فكل الناس عابد! وإنما هي قضية "العبادة الصحيحة".. أو قل إنها قضية "المعبود"!

من المعبود؟! آلله الذي لا إله إلا هو؟ أم آلهة أخرى –معه أو من دونه– لا ألوهية لها في الحقيقة، ومن ثم فلا تجوز لها العبادة ولا الطاعة ولا الانصياع؟

وتلك قضية البشرية في التاريخ كله، وستظل هي القضية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) سورة النساء: ١٢٥.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) الجاثية: ٢٣.

وبقدر ما تصغّر الجاهلية المعاصرة من هذه القضية؛ لتداري سوأتها، وتبرر انحرافاتها.. يتركز الحديث في كتاب الله على هذه القضية ذاتها، بقدر ما لها من الأهمية في واقع حياة الإنسان، لا في الحياة الدنيا وحدها، ولكن في الآخرة كذلك، وهي الأطول والأدوم وهي "الحيوان"، أي الحياة الدائمة التي تستحق أن تعاش..

(..وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[1].

فعلى أساس هذه القضية يتحدد منهج حياة الإنسان في الأرض: اعتقاده وفكره، أخلاقه وسلوكه، تصوراته وتصرفاته، علاقته بربه وعلاقته بنفسه ومجتمعه، وعلاقته بالكون كله من حوله.. حربه وسلمه، سياسته واقتصاده، علومه وفنونه.. وكل شيء في حياته.

وعلى أساس هذه القضية ذاتها يتحدد مصيره في الآخرة: إلى الجنة أو النار.. إلى نعيم مقيم أو عذاب مقيم..

هل يمكن أن يوجد في حياة الإنسان أخطر من هذه القضية التي تجمع في طياتها قضايا الوجود كله؟!

ومع ذلك تصغّر الجاهلية المعاصرة من شأنها حتى لتكاد تطمس آثارها..؛ لتخرج الناس من عبادة الله إلى عبادة الشيطان، وتخرجهم من النور إلى الظلمات:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)[2].

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[3].

* * *

"لا إله إلا الله" معناها عبادة الله وحده، والالتزام بما جاء من عند الله.

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) يس: ٦٠-٦١.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

فأما مبدأ الالتزام فلم يتغير –وليس من طبيعته أن يتغير– من رسالة إلى رسالة خلال التاريخ، لذلك جاءت قصص الأنبياء في القرآن الكريم موحدة الصورة موحدة الألفاظ: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره".

أما تفاصيل الالتزام –أو قل تفاصيل المقتضيات المترتبة على لا إله إلا الله– فقد تغيرت من رسالة إلى رسالة، حتى جاءت الرسالة الأخيرة التي أنزلت على الرسول الخاتم –صلى الله عليه وسلم–.

وقد ورد في القرآن الكريم إشارة إلى بعض هذه المقتضيات التي أنزلت لإصلاح انحرافات معينة في سلوك تلك الأمم، وهي ليست بالضرورة كل ما نزل من عند الله على هؤلاء الأقوام.

فقد قيل لعاد: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)[1].

وقيل لثمود: (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)[2].

وقيل لقوم لوط: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)[3].

وقيل لأصحاب الأيكة: (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[4].

فاختلفت التوجيهات الربانية باختلاف انحرافات تلك الأقوام، وإن كانت –بالنسبة لكل قوم– داخلة في المقتضى العام للا إله إلا الله، وهو الالتزام بما جاء من عند الله.

---

(١) الشعراء: ١٢٨–١٣١.

(٢) الشعراء: ١٤٦–١٥٢.

(٣) الشعراء: ١٦٥–١٦٦.

(٤) الشعراء: ١٨١–١٨٣.

وعند هذا الحد نلحظ ملاحظة مبدئية: أن "لا إله إلا الله" لم تكن قط عقيدة فحسب، إنما كانت دائماً -إلى جانب العقيدة- توجيهات ربانية تتناول جوانب الحياة المختلفة. ومع أنه لم يرد عنها ذكر مفصل في القرآن الكريم بالنسبة للأقوام الأولى، إلا أنه قد ورد منها ما يكفي لبيان "نوعيتها". فهي تارة توجيهات اجتماعية خلقية (كما هو الحال مع قوم لوط) وتارة اجتماعية "نفسية" لمعالجة الكبر والطغيان في الأرض والاعتزاز بالقوة المادية (كما هو الحال مع عاد) وتارة اجتماعية اقتصادية (كما هو الحال مع أصحاب الأيكة).

كما نلحظ ملاحظة أخرى: أن تلك الأقوام الجاهلية قد استنكرت من رسولها أن يتدخل "الدين" الذي جاء به في شئونهم الدنيوية، التي خيّل لهم الوهم الجاهلي أنها من شئون البشر، يحلون فيها ويحرمون كما يحلو لهم، وليس "للدين" أن يتدخل فيها!

وأبرز نموذج لهذه القضية اعتراض قوم شعيب على رسولهم: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[١] إذ أنهم لم يعترضوا على الجانب العقدي من الدعوة وحده، حين دعاهم رسولهم إلى نبذ الآلهة الزائفة وعبادة الله وحده، إنما اعترضوا بروح "علمانية" على تدخل الدين في شئونهم "الحياتية"!

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)[٢].

* * *

وفي مرحلة أخرى من مراحل نمو البشرية أنزل الله التوراة على بني إسرائيل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا

(١) هود: ٨٤-٨٥.
(٢) هود: ٨٧.

أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1].

ثم بعث الله عيسى ابن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل، مصدقاً لما بين يديه، وليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم بكفرهم: (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[2].

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)[3].

ونلاحظ هنا ملاحظات..

إننا هنا أمام مقتضيات للا إله إلا الله لم تنزل لمواجهة انحرافات معينة وقع فيها القوم الذين أرسل إليهم الرسول، إنما هي توجيهات ابتدائية، هدفها إقامة "أمة" على نهج رباني؛ أمة لها مشخصات خاصة، يقوم بناؤها على رابطة العقيدة: رابطة لا إله إلا الله (وإن اجتمعت لها روابط أخرى قومية، أو عرقية وأو لغوية.. إلخ) ويكون أساس حياتها التشريع الرباني والتوجيهات الربانية، لتكون "أمة ربانية"، ووُصِلَت لها هذه التشريعات والتوجيهات بأصل العقيدة –بلا إله إلا الله– فقيل لها في وضوح وصراحة: "وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" فاتصل الحكم بما أنزل الله في حياتها بأصل الاعتقاد: بقضية الكفر والإيمان. ومن ثم فهي ليست "توجيهات أخلاقية، يأخذ الناس بها أو لا يأخذون، ويأخذون منها ما يعجبهم، أو يتركون، إنما هي إلزام، وإلزام متصل بأصل الإيمان.. فلا إيمان إلا بالحكم والتحاكم إلى ما أنزل الله.

(١) المائدة: ٤٤–٤٥.

(٢) المائدة: ٤٦–٤٧.

(٣) آل عمران: ٤٩–٥٠.

وقد نلاحظ كذلك أن هذا الأمر: وهو ارتباط التشريع بالعقيدة، ونزول مقتضيات للا إله إلا الله تشتمل على "دستور" كامل[1]، قد ارتبط به قيام "أمة" قدّر الله لها في علمه أنها أمة باقية في الأرض إلى قيام الساعة[2]..

ثم انحرفت هذه الأمة انحرافات كثيرة عن مقتضيات لا إله إلا الله التي أنزلها الله عليها لتكون "أمة ربانية".. فحولت رسالتها، لتكون أمة عرقية منحصرة في داخل نفسها[3]، وخيّل لها الوهم الشيطاني أنها "شعب الله المختار" بذاتها، ولصفات معينة فيها ليست في غيرها، وليس لأنها كانت –وقت اختيارها– مؤمنة بالله على بصيرة.. وحرفت عقيدتها فقالت عزير ابن الله، وحرفت شريعتها فأبقت منها ما أبقت وأزالت ما أزالت، ولوت أعناق ما نزل إليها، ليوافق أهواءها[4].. فأرسل الله لها أنبياء لا يحصيهم العد، ثم أرسل إليها في النهاية رسولاً جديداً، ليستحيي منها من يصلح للاستحياء، وتكتب اللعنة على الكافرين..

وجاء عيسى –عليه السلام–؛ لينقى لمن استحياهم من الأمة الأولى عقيدتهم، ويردها إلى التوحيد الخالص، ويربط بالتوحيد التحاكم إلى ما بقى معتمداً من أحكام التوراة، مع التعديلات التي جاء بها الإنجيل، وليكون هذا وذاك من أصل الإيمان بلا إله إلا الله، ولتكون

---

(١) كان هذا الدستور وافياً بمتطلبات تلك الأمة في الأمد الذي قدره الله لبعث رسول جديد بدستور أكمل.

(٢) ورد في شأن اليهود في القرآن الكريم: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) [الأعراف: ١٦٧] وفي ذلك إشارة إلى بقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة رغم انحرافاتها التي أخرجتها من رحمة الله في الدنيا والآخرة.

(٣) يدعي اليهود نقاء "دمائهم" وكونهم كلهم من بني إسرائيل، وهي دعوى يكذبها الواقع. فاليهود الشقر، الزرق العيون، ليسوا بالتأكيد من بني إسرائيل، ولا من الجنس السامي الأسمر البشرة ذي العيون الداكنة، ولكنهم من يهود دولة الخزر الذين تهودوا في القرن العاشر الميلادي ثم دهمهم الروس في القرن الرابع عشر فشتتوهم في بقاع أوربا المختلفة. كما أن تقرير الدستور اليهودي أن اليهودي من كانت أمه يهودية، معناه ضرب الصفح عن الآباء.. من أي جنس كانوا!!

(٤) في التوراة المنزلة نص يحرّم الربا ولكنهم حرفوه؛ ليجعلوا التحريم مقصوراً على التعامل بين اليهود بعضهم وبعض، أما "الأميون" –أي كل الأمم من غير اليهود– فقد أباحوا كل أموالهم بالربا وغيره، وقالوا "لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ" [آل عمران: ٧٥].

"الأمة الربانية" الجديدة هي "الذين قالوا إنا نصارى"، أمة تؤمن بالله على بصيرة، وتحكم بما أنزل الله..

ولكن "الذين قالوا إنا نصارى" لم يستقيموا طويلاً على طريق الله..

فمن ناحية العقيدة قالوا إن المسيح ابن الله، وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، فأفسدوا عقيدة التوحيد الصافية. ومن ناحية أخرى فصلوا العقيدة عن الشريعة فلم يحكموا بما أنزل الله، وإنما بما قرر قيصر، زاعمين أن المسيح -عليه السلام- هو الذي وجههم لذلك إذ قال لهم: أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله! وجعلوا أحكام الشريعة "توجيهات أخلاقية" يأخذ بها الأتقياء بدافع التقوى، وليست إلزاماً كما قررها الله؛ ليلتزم بها كل الذين قالوا إنا نصارى بلا خيار.

وجاء شاول اليهودي -الذي زعم الإيمان بالمسيح بعد أن كان من أشد أعدائه، ومن أقساهم على أتباعه -فنشر هذا "الدين" المحرف زاعماً أنه هو الدين السماوي المنزل من عند الله، وأذاعه في رقعة واسعة من الأرض، بينما هو -في أصله المنزل- لم يكن رسالة عالمية، إنما كان موجهاً إلى الأمة الأولى لاستحياء من يصلح للاستحياء منها، ليحملوا الشعلة المقدسة -شعلة التوحيد والإيمان- حتى يحين الوقت المقدر في علم الله لإرسال الرسول الخاتم -صلى الله عليه وسلم-.

وكان في قدر الله أن تبقى هذه الأمة -رغم انحرافاتها- إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1].

ولكن "الدستور" الذي نزل إليهم في الإنجيل -والذي أمروا أن يحكموا بما أنزل الله فيه -كان معداً -بعلم الله-؛ ليفي بمتطلبات تلك الأمة في الأمد المحدود الذي قدر الله بعده أن ينزل الدستور الكامل الشامل الذي يبقى محفوظاً بحفظ الله، ليحكم حياة البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

وذلك هو القرآن..

---

(١) المائدة: ١٤.

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(١).

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(٢).

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)(٣).

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(٤).

وفي الرسالة الأخيرة اتسعت "مقتضيات لا إله إلا الله"؛ لتستوعب كل متطلبات المجتمع الصالح، ولتقوم عليها حياة "الأمة الربانية" التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولتكون شاهدة على الناس إلى يوم القيامة:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)(٥).

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(٦).

وفي الفصول التالية تفصيل لمقتضيات لا إله إلا الله كما جاءت في رسالة الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) فصلت: ٣.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) التكوير: ٢٧.

(٤) المائدة: ١٥-١٦.

(٥) آل عمران: ١١٠.

(٦) البقرة: ١٤٣.

مقتضيات
لا إله إلا الله
في الرسالة المحمدية

(اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[1].

كان في تقدير الله أن تكون الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة هي أمة محمد –صلى الله عليه وسلم–، وأن تكون هذه الرسالة موجهة إلى البشرية كافة، وأن يكتمل فيها الدين، وأن تتسع لكل احتياجات البشرية إلى قيام الساعة.. وأن يكون هذا كله مرتبطاً في حياتها بلا إله إلا الله..

إن لا إله إلا الله –كما رأينا في التمهيد السابق– تعني عبادة الله وحده بلا شريك، والالتزام بما جاء من عند الله. ورأينا في التمهيد كذلك أن مقتضيات هذا الالتزام قد ظلت تنمو مع نمو البشرية– وإن بقي المبدأ واحداً لا يتغير– حتى جاءت الرسالة الخاتمة، فبلغت المقتضيات نموها الأخير، وقال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)[2].

فتعددت هذه المقتضيات وتشابكت، لتشمل جوانب الحياة كلها، ولتشملها متكاملة مترابطة، فأصبحت هي منهاج الحياة الذي يريد الله للبشرية أن تسير عليه، لتنعم به في الدنيا، وتنال رضوان الله في الآخرة، يوم يقول الله لهم: (هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[3].

ولأن "لا إله إلا الله" –في الرسالة الأخيرة– قد حملت من المقتضيات– أو سمِّها التكاليف– ما لم تحمله في أية رسالة سابقة، فقد لزم في تقدير الله أن تكون وثيقة جداً وعميقة جداً في حس الأمة التي تحملها، حتى تكون كفئاً للمهمة الضخمة المنوطة بها، لا في

(١) الأنعام: ١٣٤.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) المائدة: ١١٩.

حياة الأمة المسلمة ذاتها فحسب.. بل في حياة كل البشرية، حيث عُلِمَ من كتاب الله أن هذه الأمة لم تُخْرَج؛ لتستقيم على أمر ربها في ذات نفسها فحسب- كما كان المطلوب من الأمم السابقة كلها- ولكن لتكون رائدة وشاهدة على كل البشرية.

من أجل هذا يوثّق القرآن "لا إله إلا لله" في قلب هذه الأمة، ويعمّق غرسها، ويُمَتِّن ارتباطاتها، ويجعل هذا جزءاً من خيريتها التي كتبها الله لها: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..)[1].

بكل الوسائل والأدوات يتم التوثيق، ويتم التعميق..

مرة بعرض آيات الله في الكون، الدالة على عظمته وقدرته وعظيم سلطانه:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[2].

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[3].

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) فصلت: ٩-١٢.

(٣) البقرة: ١٦٣-١٦٤.

الْمِحَالِ، لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ)[١].

(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[٢].

(اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[٣].

ومرة بتذكير الإنسان بنعم الله التي أفاضها عليه:

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[٤].

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ

---

(١) الرعد: ١٢-١٤.

(٢) الأنعام: ٩٥-٩٩.

(٣) الرعد: ٢-٣.

(٤) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[١].

ومرة بعرض مشاهد القيامة، من بعث وحشر وحساب وميزان، وثواب وعقاب:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ، قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ، وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[٢].

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)[٣].

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ، عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ، مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ،

---

(١) النحل: ١٠-١٦.

(٢) الزمر: ٦٧-٧٥.

(٣) الحج: ١٩-٢٢.

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1].

وتارة من خلال إخبات الرسل الكرام إلى ربهم، واستسلامهم لأمره، وطاعتهم له، ودعائهم وتضرعهم، واستجابة الله لدعائهم:

(كهيعص، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً، يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً)[2].

(وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[3].

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[4].

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)[5].

وتارة من خلال الجدل الذي يجري بين الرسل وأقوامهم المعاندين، ثم نصرة الله لأنبيائه والتدمير على الكافرين:

---

(١) الواقعة: ١٠-٢٤.

(٢) مريم: ١-٧.

(٣) البقرة: ١٣٠-١٣١.

(٤) الصافات: ١٠١-١٠٩.

(٥) الأنبياء: ٨٣-٨٤.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ، وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ، فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ)[١].

وتارة من خلال علم الله المحيط بالغيب، ورقابته على أعمال البشر ومحاسبتهم عليها في الآخرة:

(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ، ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)[٢].

وتارة من خلال بيان الدقة المعجزة في بناء الكون، والنظام الدقيق الذي تجري به أفلاكه، مما يستحيل أن يصدر عن آلهة مختلفين، لكل واحد منهم تدبير، ولكل واحد منهم مشيئة:

---

(١) الأعراف: ٥٩-٧٢.

(٢) الأنعام: ٥٩-٦٢.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً..)(1).

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(2).

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(3).

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)(4).

وتارة من خلال قصة آدم والشيطان، وتحذير البشر من عدوهم الأكبر، الذي يجرهم إلى الكفر والشرك:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظَرِينَ، قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)(5).

---

(١) الفرقان: ٤٥-٤٩.

(٢) يس: ٣٦-٤٠.

(٣) الأنبياء: ٢٢.

(٤) المؤمنون: ٩١.

(٥) الأعراف: ١١-١٨.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً، قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً، قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً، وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)[1].

وتارة من خلال تعريف الناس بربهم بأسمائه الحسنى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2].

وتتعدد الأسماء والصفات، ويتكرر ورودها في آيات القرآن؛ لتحيط بالقلب البشري من جميع اتجاهاته وفي جميع أحواله. فحيثما فكر، وكيفما قدر، وأينما توجه، وجد الله تجاهه.. يريد الرزق؟ فالله هو الرزاق ذو القوة المتين. يريد السلامة والعافية؟ فالله هو الذي يقدر الأقدار وينشئ الأحداث، وعندَه -ومِن عِنْدِه- ترجى العافية. يريد النجاة من المخاوف؟ فالله هو المنجي، وما ملجأ من الله إلا إليه. يريد الذرية؟ فالله هو الذي يهب الذرية، ويهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، ويجعل من يشاء عقيماً. يريد العزة؟ فالله هو المعزل المذل. يريد النصر على الأعداء؟ فالله هو الناصر. يريد العون على الخير، فالله هو المعين. يريد التيسير؟ فالله هو الميسر. يريد البركة والطمأنينة؟ فبيد الله البركة والخير، وبذكر الله تطمئن القلوب[3]..

* * *

(١) الإسراء: ٦١-٦٥.

(٢) الحشر: ٢٢-٢٤.

(٣) تؤدي الأسماء والصفات الواردة في كتاب الله (وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-)، مهمة كبيرة في هداية القلب البشري، وربطه بالله سبحانه وتعالى. ولكن "المتكلمين" أفسدوا هذه المهمة حين حولوا الأسماء والصفات إلى قضايا ذهنية باردة جافة يدور حولها الجدل الذهني ولا تحرك القلب، ولا تربطه بالله.

وخلال ثلاثة عشر عاماً في مكة، وعشر سنوات في المدينة كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوثق في قلوب أتباعه "لا إله إلا الله"..

كان عليه الصلاة والسلام يعيش مقتضيات لا إله إلا الله أمام أتباعه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها.. كان يعلمهم كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله..

فإذا أصبحوا قالوا: "اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور" وإذا أمسوا قالوا "اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير"[(١)].

أو قالوا: "أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر ما في هذا اليوم وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبَر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر"[(٢)].

وكان عليه الصلاة والسلام يردد، ويعلم أصحابه أن يرددوا:

"اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي. فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"[(٣)].

"اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي"[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) البخاري.

(٤) ابن ماجة.

"اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد ألا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم"(١).

"أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين"(٢).

"اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر"(٣).

"يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"(٤).

"اللهم عافني في بدني. اللهم عافني في سمعي. اللهم عافني في بصري. لا إله إلا أنت. اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت"(٥).

وكان يقول لأصحابه إذا آووا إلى فراشهم أن يقولوا:

"اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت"(٦).

ويقولوا: "باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"(١).

---

(١) أحمد أبو داوود الترمذي والنسائي وأخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) الإمام أحمد.

(٣) أبو داود.

(٤) النسائي.

(٥) أبو داود.

(٦) الشيخان.

وإذا استيقظوا أن يقولوا:

"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور"[2].

وإذا لبسوا ثوباً جديداً أن يقولوا:

"اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له"[3].

وإذا خرجوا إلى المسجد في الصباح أن يقولوا:

"اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً. اللهم أعطني نوراً"[4].

وإذا أصاب أحدهم هَمٌّ أن يقول:

"لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم"[5].

أو يقول:

"اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتبك، أو علمته أحداً

---

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم.

(٣) الترمذي.

(٤) مسلم.

(٥) الشيخان.

من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني، وذهاب همي"[1].

كان عليه الصلاة والسلام يعلمهم -بالقدوة في شخصه الكريم- كيف يحيا الإنسان في معية الله، وكيف يكون في كل لحظة ذاكراً لله.. صابراً إن أصابه ضر، شاكراً إن أصابه خير، متطلعاً دائماً إلى عون الله، لاجئاً إليه، مستعيناً به، مستغفراً إياه، مسلماً بقضائه وقدره، مستعيداً من غضبه، راجياً رضاه، فكانوا كما وصفهم الله:

(يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ)[2].

وتجردوا لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم كما وصفتهم كتب السيرة، وكان هذا كله -في فترة التربية في مكة خاصة- هو مدلول لا إله إلا الله في نفوسهم، كما تعلموها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكما أنزلت في كتاب الله..

وهكذا -بكل الأدوات والوسائل- توثقت لا إله إلا الله في قلوبهم وتعمقت، فتعلقت قلوبهم بالله برباط متين، يحبونه ويخشونه، ويتطلعون إليه ويرجونه، ويتهيأون لطاعته فيما يأمر.. فقامت في قلوبهم القاعدة التي تحمل البناء.. تحمل التكاليف، وتتحرك للوفاء..

* * *

ثم اتسعت رويداً رويداً مقتضيات لا إله إلا الله بعد أن استعدت النفوس لتلقي التكاليف، واستعدت للأداء.. ويلفت نظرنا هنا أمور..

لقد كانت في حياة العرب -الذين اختارهم الله؛ ليكونوا قاعدة الانطلاق للدعوة الجديدة- عدة مشكلات تحتاج إلى حل، وعدة انحرافات تحتاج إلى تقويم. إلى جانب القضية الكبرى: قضية الشرك بالله في صورة اعتقاد، وفي صورة عبادة، وفي صورة تشريع..

كانت هناك النزاعات القبلية تبدد طاقات القوم، وتمنع تجمعهم في "أمة".

---

(١) البخاري.

(٢) آل عمران: ١٩١.

وكانت هناك الانحرافات الخلقية من خمر وميسر وفاحشة مستعلنة، بالإضافة إلى الظلم المتفشي في البيئة بجميع ألوانه، سواء الظلم السياسي، أو الظلم الاجتماعي، أو الظلم الاقتصادي، مع الحمية القبلية التي تقول: أنصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً[1]، والحمية الجاهلية التي تقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم إلى القتال على ما قال برهاناً!

والتي ترتب عليها أن يقول القائل:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم!

ويقول الآخر:

إذا أنت لم تنفع فضرّ! فإنما يُرَجّى الفتى كيما يضر وينفعا!

وكان هناك الاحتلال الفارسي لجزء من الجزيرة في الجنوب، والاحتلال الروماني لجزء آخر من الجزيرة في الشمال..

وكان يمكن –بالتفكير البشري– أن يبدأ الرسول –صلى الله عليه وسلم– بأي من هذه القضايا، لو أنه زعيم بشري يتطلع إلى السيادة والزعامة، أو يتطلع إلى خدمة قومه لينقذهم مما هم فيه من مشاكل وانحرافات..

كان يمكن أن يبدأ بالمشكلة الداخلية فيسعى إلى توحيد القبائل وإزالة ما بينها من خلافات، ثم يتجه لحل المشكلة القومية بإخراج الفرس والروح من أرض الجزيرة.

أو يبدأ بالمشكلة الأخلاقية، فيدعو إلى تطهير "المجتمع" من المفاسد الخلقية، وتربية النفوس على النظافة والتطهر والارتفاع.

أو يبدأ بالمشكلة الاجتماعية المتمثلة في فوارق الطبقات، وطغيان أصحاب الثروة واستعبادهم للمستضعفين، واستغلال جهدهم، ليزدادوا فقراً وذلاً ويزدادوا هم ثراء وطغياناً..

---

(١) لا يرده عن الظلم كما قال الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ولكن بالقتال إلى جانبه وإن كان ظالماً كما كانت تفعل الجاهلية!

ولكنه وهو نبي مرسل -وليس زعيماً من "عظماء" الأرض- لم يوجهه ربه أن يبدأ بشيء من ذلك الذي يمكن أن يتجه إليه زعماء البشر حين يتطلعون إلى "الإصلاح"..

إنما وجهه ربه أن يبدأ بلا إله إلا الله، ويدعو قومه إلى الإيمان بها، ويربي من استجاب منهم على مقتضياتها.

ولكن القضية التي نريد أن نبرزها هنا أن هذه المشاكل والانحرافات كلها قد عولجت فيما بعد. فهي ليست خارجة من الحساب، وليست مما لا يجوز توجيه الاهتمام إليه، وليست أمراً ثانوياً في حياة الأمة التي يراد لها أن تكون خير أمة..

ولكن فرق بين علاج وعلاج..

إنها -حين عولجت- لم تعالج على أنها قضايا سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو أخلاقية.. الخ.

إنما عولجت -حين جاء دورها- على أنها من مقتضيات لا إله إلا الله! حين اتسعت مقتضيات لا إله إلا الله فشملت كل شئون الحياة.

فهل ثمت فرق بين تناولها على أنها قضايا سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو أخلاقية... إلخ وتناولها على أنها من مقتضيات لا إله إلا الله؟

نعم هناك فرق ولا شك.. فرق في الطريقة، وفي النوعية، وفي التوقيت..

ولعل مثلاً واحداً يغنينا عن مزيد من الشرح، هو ما حدث في تحريم الخمر، وما يحدث اليوم في الدول "المتقدمة".. الدول "العصرية"!

تروي كتب السيرة -كما ألمحنا في أكثر من كتاب- أنه حين نزل تحريم الخمر، أرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منادياً ينادي في طرقات المدينة: أيها الناس! الا إن الخمر قد حرمت.. وما زاد على ذلك.. وتقول كتب السيرة: فمن كان في فمه شربة خمر أراقها، ومن كان في بيته زق خمر أراقه، حتى ظلت المدينة أياماً تفوح طرقاتها برائحة الخمر..

والدول "العصرية" المتقدمة، تسن القوانين، وتجند الشرطة، وتشغل المحاكم، وتشغل السجون، وتقول تقريراتها إن نسبة الإدمان فيها آخذة في الازدياد..

ثم إن هناك فرقاً في النوعية: بين أن يكون دافع الطاعة هو الخوف من سطوة القانون، وأن يكون الدافع مخافة الله، النابعة في القلب من الإيمان بلا إله إلا الله.. ومع أن الله "يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" كما قال عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، ولكن يظل الفارق قائماً بين وجود القاعدة الإيمانية، وكونها الدافع الأول للسلوك –بأي درجة من الدرجات– وبين عدم وجود تلك القاعدة أصلاً، وانحصار الوازع في السلطان.

أما فارق التوقيت فله كذلك شأن..

إن البدء بأي من المشاكل السالفة الذكر كان يمكن أن يحلها حلاً جزئياً بصورة من الصور.. ولكن المشكلة الجذرية التي أنشأت كل المشاكل الأخرى كانت ستظل قائمة في النفوس.. ويظل "الإنسان" على ما هو عليه بغير إصلاح حقيقي..

يمكن أن تسترد الأرض، وتُرْضى "العزة القومية"..

يمكن أن يخف الظلم الاجتماعي ويتحرر الإنسان من "الاستغلال"، أو يتوهم أنه تحرر!

يمكن أن تقوم دولة مركزية لها شرطة ومحاكم وسجون، بدلاً من الحكومات القبلية التي تحكم كل منها قبيلتها، وتعبد فيها القبيلة رباً فيقول قائلها[1]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد!

كان يمكن أن يحدث كل ذلك، أو شيء منه، ويبقى "الإنسان" عبداً لغير الله، تتناوشه خرافات الآلهة الزائفة، وينفق طاقته في التعبد للوهم الذي يعبده، وتستعبده شهواته، ويشرع له البشر فينقلب الناس إلى سادة وعبيد.. سادة يملكون ويشرعون، وعبيد يقع عليهم عبء التشريع.. كما يحدث في كل جاهلية في التاريخ، بما في ذلك الجاهلية المعاصرة، وإن أوهمت أهلها أنهم يشاركون في التشريع[2].. وهذا كله في حساب الأرض.. حساب الحياة الدنيا.. أما حساب الآخرة..!

---

(١) هو دريد بن الصمة.

(٢) اقرأ إن شئت فصل "الديمقراطية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

كلا! لم يتوجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى حل أي من هذه المشاكل في بدء عمله في الدعوة. إنما توجه بأمر ربه إلى الدعوة للا إله إلا الله، حتى إذا قامت لا إله إلا الله في قلوب العصبة المؤمنة التي يعدها الله، لتكون نواة "الأمة الربانية"، وتكون هي "القاعدة الصلبة" التي تحمل البناء، وعلم الله من هذه القلوب أنها تجردت له.. أخذت تتنزل التكاليف، وبدأت "مقتضيات لا إله إلا الله" تتسع حتى شملت الحياة كلها، بما فيها تلك القضايا ذاتها، التي لم يبدأ بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والتي كان لا بد من حلها؛ لكي تقوم الأمة الربانية على أسس قوية صامدة.. ولكن كان لا بد -في المنهج الرباني- أن تتحول تلك القضايا إلى "متطلبات إيمانية" مرتبطة بلا إله إلا الله، لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعايير البشر، وأن يكون الجهد الذي يبذل في حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التي قد تنتج عنها.. وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق في البشرية، وكانت النتائج شيئاً يشبه المعجزات!

وفيما يلي نتحدث عن أبرز مقتضيات لا إله إلا الله، سواء منها المقتضى الإيماني الذي تحدثنا عنه مراراً من قبل، أو المقتضيات الأخرى، التي قد يبدو بعضها -حتى عند فريق من الإسلاميين أنفسهم- أموراً خارجة عن نطاق لا إله إلا الله.

أولاً: المقتضى الإيماني

أشرنا من قبل إلى الأهمية البالغة التي يوليها كتاب الله لقضية الإيمان بالله الواحد، ونبذ الآلهة الزائفة كلها، وإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك. وأنه لم يكن السبب في التركيز عليها أن المخاطبين الأوائل بهذا القرآن كانوا مشركين، إنما بسبب الأهمية الذاتية لهذه القضية، النابعة من كون الإنسان عابداً بفطرته، وأنه إما أن يعبد الله وحده، وإما أن يعبد غيره، معه أو من دونه سواء. وأنه لا بد من تطهير النفس البشرية من كل عبودية زائفة لغير الله، وتوجيه العبادة بكل أنواعها إلى الإله الحقيقي، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ليرتفع الإنسان إلى المقام الذي كرمه الله به وفضله على كثير من خلقه، ولكي ينجو في الحياة الدنيا من الهبوط الذي يتمثل في الشرك بكل أنواعه، وينجو في الآخرة من النار..

وقلنا: إن الفطرة بذاتها -كما خلقها الله- عابدة لله على استقامة. ولكنها عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التي تفسد صفاءها واستقامتها..

وحين تختل الفطرة، وتنحرف عن استقامتها، يصيبها كثير من الأمراض..

أمراض في الرؤية، وأمراض في السلوك. أمراض في الفرد وأمراض في المجتمع.. أمراض في الكيان النفسي، والكيان الاجتماعي، والكيان السياسي، والكيان الاقتصادي، والكيان الأخلاقي.. وفي كل جانب من جوانب النفس، وكل جانب من جوانب الحياة.

يهبط الإنسان مع الشرك دركات من الهبوط..

وإذا أخذنا الجاهلية المعاصرة نموذجاً، لأنها تحسب نفسها شيئاً فريداً في التاريخ، وأنها أعلى ما وصل إليه الإنسان في التاريخ كله، فلننظر أنواع الهبوط التي ابتلي بها "الإنسان" في هذه الجاهلية..

لأسباب بيناها في غير هذا الكتاب[1]، حصر الإنسان نفسه في محيط ما تدركه الحواس فحسب، وألغى من عالمه الإيمان بما لا تدركه الحواس.

ومن ثم فقد معنى وجوده!

إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يستطيع أن يرى الصورة في تمامها الذي أنشأه الله "بالحق"، وخلق من أجله السموات والأرض "بالحق"، فيراها عندئذ شوهاء مبتورة غير ذات معنى ولا حكمة ولا قيمة.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[2].

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)[3].

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)[1].

---

(١) اقرأ إن شئت فصل "العلمانية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) ص:٢٧-٢٨.

وحين يفقد الإنسان معنى وجوده ينطلق هائماً كما انطلق الشاعر الجاهلي المعاصر[٢] يقول:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت!
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت!
وسأمضي في طريقي شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!

ويمضي يتخبط.. يقطع الطريق كالسائمة..

فإنه حين لا يدرك لحياته معنى ولا حكمة، يستحيل عليه أن يؤمن "بالقيم" التي ترفعه عن عالم الحيوان، فينتكس إلى أسفل، فيصبح أضل من الحيوان:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[٣].

وفي عالم الحيوان يكون الهم الأكبر -إلى جانب قضاء الشهوات- هو صراع البقاء. فتلتقي أنواع الحيوان المختلفة لتتصارع وتكون الغلبة للأقوى، فيأكل القوي الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

أما في عالم "الإنسان" فقد جعل الله للحياة هدفاً آخر، ومعياراً آخر:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[٤].

والصراع الذي كتبه الله في عالم الإنسان ليس صراع الغلبة من أجل الغلبة، ولكن من أجل إصلاح الأرض:

---

(١) يونس: ٤.
(٢) إيليا أبو ماضي.
(٣) الأعراف: ١٧٩.
(٤) الحجرات: ١٣.

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[١].

فإلى أي درك يهبط الإنسان حين يفقد معنى وجوده، ويتعامل بعضه مع بعض على مستوى الحيوان؟ وهو فال ذلك لا محالة إذا هبط عن الإيمان بما لا تدركه الحواس، ففقد الإيمان بالله واليوم الآخر..

إن الإيمان بالله وحده بلا شريك هو حق الله على العباد كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

"قال: أتدرون ما حق الله على العباد؟ حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.."[٢].

ولكن الله لا يزيد في ملكه شيئاً أن يكون الناس كلهم على قلب أعبد رجل منهم، ولا ينقص في ملكه شيئاً أن يكونوا كلهم على قلب أفجر رجل منهم.

يقول تعالى في الحديث القدسي:

"يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً.."[٣].

"فالمستفيد" في هذه القضية هو الإنسان ذاته، حين يؤمن بالله واليوم الآخر، والخاسر فيها هو الإنسان ذاته، حين تقعد به ثقلة الهبوط عن الإيمان.

(مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)[٤].

(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[١].

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) الإسراء: ١٦.

و"الفساد" الذي يسري في الأرض حين يهبط الإنسان عن الإيمان بما لا تدركه الحواس، فيفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، ويفقد معنى وجوده، ألوان شتى لا يدركها الحصر.

ففوق انطفاء القبسة المضيئة في روح الإنسان، المستمدة من النفخة العلوية من روح الله في قبضة الطين، وبروز قبضة الطين بعتامتها وثقلها، وانتشار الصراع الوحشي في الأرض، الذي يؤكل فيه الصغار، أو يداسون بالأقدام.. تظل "القيم" هي القيم المادية، ويظل الصراع بين البشر على امتلاك المتاع الحسي والاستزادة منه على حساب المستضعفين، في شكل استعمار و"إمبريالية" وطغيان، وإن أخذ شكل حضارة وتمدن وتقدم ورقيّ!

ينشغل الإنسان بذاته، لأنها محور استمتاعه، فإذا امتد اهتمامه فلقومه، لأن الخير الذي يعود عليهم يعود عليه في النهاية بمزيد من الاستمتاع. ولكنه لا يمتد إلى ما وراء ذلك، لأن ما وراء ذلك يحتاج إلى "إنسانية الإنسان" التي يفقدها حين يفقد القدرة على الإيمان بما وراء العالم المحسوس.

وحتى في داخل ذاته، وفي محيط قومه، فما حدود اهتماماته؟ وما محيط القدر الذي "يستثمره" مما وهب الله له من مزايا تفرد بها، وفضله الله بها على كثير ممن خلق؟

إنه يستثمر ولا شك جوانب من هذه المواهب، وقد يستثمرها ببراعة تثير الإعجاب.. تلك التي تحقق له المتاع الحسي، وتحقق له الغلبة على الآخرين في صراع البقاء الوحشي.. ولكنه يترك بقية المساحة الموهوبة له يبابا مقفراً، لا يضيع هباء فحسب، بل تأوي إليه الهوام والحشرات التي تفسد فيها النهاية المساحة التي يستثمرها، فتزدهر حيناً من الوقت بما يبذل فيها من الجهد، ثم تنتهي بالبوار..

والذي يفتن الناس عن هذه الحقيقة أن كثيراً ممن لا يؤمنون بلا إله إلا الله ممكنون في الأرض و"ناجحون" بالمقاييس الدنيوية، فيخيل لكثير من الناس في الجاهلية المعاصرة أن "لا إله إلا الله" لا تأثير لها في واقع الحياة، وأنه يستوي أن يكون الإنسان مؤمناً، أو كافراً.. فمعايير النجاح "فنية" و"علمية" و"موضوعية" ولا علاقة لها بالاعتقاد. بل قد يجدون في الواقع المعاصر ما يغريهم بالظن بما هو أسوأ من ذلك، وهو أن الكفر بلا إله إلا الله من مستلزمات النجاح.. والعياذ بالله!

---

(١) العنكبوت: ٦.

والسبب في هذا الوهم الذي يسيطر على الجاهلية المعاصرة خاصة -أو من إسبابه- الجهل بالسنن الربانية، وسطحية التفكير، وغلبة الشهوات، وانطماس البصيرة عن رؤية الحق، والغفلة التامة عن اليوم الآخر:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)(١).

فأما الجهل بالسنن الربانية فإنه يجعل الناس في غفلة عن حقيقة مذكورة في كتاب الله في أكثر من سورة، وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل التمكين في الحياة الدنيا خاصاً بفريق من الناس دون فريق، بل قال سبحانه:

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً)(٢).

فالدنيا -كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لذلك يعطى الكافر منها بقدر ما يجتهد في الحصول عليها:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)(٣).

والدنيا -من ناحية أخرى- هي محل الابتلاء الذي خلق الله الإنسان من أجل أن يخوضه:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)(٤).

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(٥).

فلو أعطاها الله لفريق من البشر دون فريق، لم يعد للابتلاء معنى.. إنما يكون له معنى حيت تتاح للبشر جميعاً، ثم يختبر الناس: أيهم تفتنه الحياة الدنيا فتشغله عن ربه، وعن اليوم

(١) الروم: ٧.
(٢) الإسراء: ٢٠.
(٣) هود: ١٥.
(٤) الإنسان: ٢.
(٥) الكهف: ٧.

الآخر، وأيهم يأخذ قسطه من متاع الأرض وهو عابد لربه، ملتزم بأوامره، ومن ثم فإن التمكين في ذاته يمكن أن يتم للمؤمنين وللكافرين سواء -إذا اتخذوا الأسباب- دون أن يتعلق ذلك بالإيمان، أو الكفر.. ومع ذلك فهناك فروق يغفلها الناس حين تصيبهم سطحية التفكير، وغلبة الشهوات، والغفلة عن الآخرة..

يقول تعالى عن الكفار والمعاندين:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ..)[1].

ويقول في موضع آخر:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)[2].

فأبواب التمكين المادي مفتوحة كلها -أو يمكن أن تفتح كلها- للكفار المعاندين. ولكن باب البركة لا يفتح عليهم، لأن الله اختص به المؤمنين، فلا يناله الكفار ولو فتح عليهم الرخاء المادي، الذي يظنه أصحاب الشهوات غاية الغايات في الحياة الدنيا.. ومن أراد مثالاً فلينظر إلى الغرب اليوم -بكل ما فيه من تقدم علمي ومادي وتكنولوجي وحربي- ولينظر إلى ما يعانيه الناس فيه من القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، واللهاث الدائم وراء تحقيق الشهوات.. دون بركة في الوقت ولا المال ولا الأسرة ولا الذرية، ولا المعاني التي تليق بالإنسان، ولا الطمأنينة كذلك، فإنها وقف على المؤمنين الذين يذكرون الله:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[3].

وهذا وذاك فضلاً عن كون هذا التمكين -الذي يتاح للكفار في الأرض للاستدراج- موقوت مهما طال:

---

(١) الأنعام: ٤٤.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) الرعد: ٢٨.

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[١].

فالظن –السطحي– بأن الإيمان بلا إله إلا الله لا تأثير له في حياة الإنسان في الحياة الدنيا، ظن لا يصدر إلا عن الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، ويحسبون في غفلتهم أن ما هم فيه من المذاقات الدنسة هو أحلى ما يتاح للإنسان تذوقه في الحياة الدنيا! وإذ لم يؤمنوا به فلن يتصوروه ولن يصدقوه!

(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)[٢].

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ..)[٣].

وقد كان المسلمون –وقت أن كانوا مستمسكين بما أمرهم الله أن يستمسكوا به– يستمتعون بالتمكين في الأرض على أعلى مستوى تحقيقاً لوعد الله لهم:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[٤].

وكانوا بالإضافة إلى ذلك ينعمون بالبركة في حياتهم. وليس أقل البركة صلة قلوبهم بالله، التي تشعرهم بالقرب من الله، وبرعاية الله لهم، واستجابته لدعواتهم، ونقاء المجتمع من الفاحشة[٥]، واطمئنان الناس إلى أنسابهم، واستقرار الأسرة ومتانة روابطها، وروح المودة

(١) الأنعام: ٤٤–٤٥.

(٢) الأعراف: ٣٠.

(٣) البقرة: ٢١٢.

(٤) النور: ٥٥.

(٥) قلنا مراراً إن نقاء المجتمع من الفاحشة لا يعني خلوه التام منها، فهذا لم يحدث في أي مجتمع في التاريخ، ولا مجتمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نفسه، إنما يعني ندرة وقوعها، وأنها حين تقع تكون في حس الناس شذوذاً يستنكر.

والوئام التي تربط الناس كأنهم أهل، والسعي إلى الرزق مع طمأنينة القلب.. وفرق بين ذلك كله وبين متاع الكفار الذي قال الله فيه:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ..)[1].

وهذا كله في أمور الحياة الدنيا..

أما الآخرة فلها شأن آخر.. ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي خالصة للذين آمنوا:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

فأما الذين لا يؤمنون بها، ويقولون: دعونا من ذكرها، وحدثونا عن الحياة الدنيا.. فما أصبرهم على النار!

* * *

كلا! لا تستوي حياة الإنسان بالكفر والإيمان في الحياة الدنيا ولا الآخرة..

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)[3].

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)[4].

وحَسْبُ الذين آمنوا أن يحسوا بالتحرر من الطواغيت التي يخضع لها الناس في الجاهلية..

---

(١) محمد: ١٣.

(٢) الأعراف: ٣٢.

(٣) ص: ٢٨.

(٤) الجاثية: ٢١.

ويستوي أن يكون الطاغوت إلهاً يعبد، أو شرعاً يتّبع، أو عرفاً يستعبد الناس له، أو شهوة مستبدة بصاحبها، أو طغياناً سياسياً أو اقتصادياً، أو اجتماعياً، أو فكرياً..

كلها طواغيت تستعبد الناس في الجاهلية..

ومرة أخرى قد تحسبُ الجاهلية المعاصرة أنها حررت الإنسان، وحطمت الطواغيت! فلننظر إلى الواقع ولا ندع العناوين الخلابة تخدعنا عن الحقيقة..

إن هذا القرآن هو الذي شهد -في أوروبا ذاتها- أعني طغاة التاريخ: هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، وفرانكو في أسبانيا، وتيتو في يوغوسلافيا، أما "الاتحاد السوفييتي" الذي هوى فهو عالم وحده، فريد في طواغيته، وعلى رأس قائمتهم السوداء "الزعيم الأوحد" ستالين، الذي قال عنه خروشوف -بعد أن مات!- إنه كان سفاحاً مجرماً متعطشاً للدماء، وغلطة لا يجوز أن تتكرر![1].

فإذا تركنا طواغيت "الأنظمة الجماعية" ونظرنا إلى "العالم الحر" فهو حر فعلاً في ناحيتين عظيمتين: الفساد الخلقي والإلحاد! أما واقع حياته، برغم كل المسرحية الجميلة التي تحكمه -مسرحية "الديمقراطية"- فالذي يحكمه في الحقيقة هو طاغوت رأس المال، والذي يتربع على عرش رأس المال هو اليهود، بكل ما في جبلتهم من طغيان[2]..

وأياً كان نوع النظام، وأياً كانت وسائله، فأساس المشكلة في الجاهلية أن البشر هم الذين يشرعون، وليس الله الحكم العدل، اللطيف الخبير.. وحيثما شرع البشر -مدّعين لأنفسهم حقاً من حقوق الألوهية- انقسم الناس إلى سادة وعبيد، أو إلى طغاة وعبّاد يعبدون الطغاة، إذ يكلون إليهم حق التحليل والتحريم من دون الله..

---

(١) من الطرائف التي حدثت في المؤتمر العشرين للحرب الشيوعي الذي ندد فيه خروشوف بستالين -بعد موته- أن تقدم أحد الموجودين بسؤال مكتوب إلى خروشوف يقول له فيه لقد كنت عضواً بارزاً في اللجنة المركزية العليا للحزب في أيام ستالين، فلماذا سكت على هذه الجرائم؟ وكان خروشوف سريع البديهة فقال: من الذي أرسل هذه الورقة؟ فلم يجب أحد بطبيعة الحال من الخوف. فقال خروشوف مخاطباً السائل المجهول. لقد عرفتَ السبب! لقد كنت خائفاً مثلك!!

(٢) اقرأ إن شئت فصل "الديمقراطية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

وذلك فضلاً عن الطواغيت الأخرى المعبودة من دون الله، والتي تطاع في معصية الله، طاغوت "الوطن"، أو "المصلحة القومية"، أو "الرأي العام العالمي"، أو "المودة"، أو "ثورة التكنولوجيا"، أو "العلم"، أو طاغوت الشهوات.

حسب الذين آمنوا أن يتحرروا من تلك الطواغيت كلها، بإخلاص العبادة لله وحده، ونزع الألوهية عن كل الآلهة الزائفة في الأرض، وإخضاعها كلها لمنهج الله.

* * *

وما بنا أن نعيد الحديث عن أثر الإيمان باليوم الآخر، والبعث والحشر والحساب والجزاء والجنة والنار، في حياة الإنسان. ولكنا نقول: ما أضيق أفق الإنسان، وما أضل تصوراته حين يحصر اهتمامه وإيمانه بالحياة الدنيا وحدها، منقطعة عن الآخرة.. وما أوسع أفقه، وما أصوب تصوراته حين يؤمن بالآخرة، ويضع الحياة الدنيا في وضعها الصحيح، وحجمها الحقيقي..

أرأيت لو أغمضت إحدى عينيك وقرّبت أصبعك من عينك الأخرى حتى لتكاد تلمسها.. كما ترى حجم أصبعك؟! وكم تحجب عنك أصبعك من مساحة الأفق من حولك؟! ثم جرّب أن تجعل أصبعك على آخر مدّ ذراعك.. كم ترى الآن حجمها؟! وكم من مساحة الأفق تستطيع أن ترى وراءها؟!

ذلك مثل الإنسان حين يلصق بالأرض.. بالطين.. تبدو الأرض أمامه هائلة هائلة، وتحجب عنه الرؤية لما وراءها من آفاق.. أما حين يجعلها من نفسه على آخر مد الذراع، فهو يراها على حقيقتها، ويرى في الوقت ذاته ما وراءها من آفاق:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[1].

ومع ذلك فإن الله لم يطلب من الناس –في منهج لا إله إلا الله– أن يهملوا الأرض ويحتقروا شأنها فلا يعمروها. بل أمرهم أمراً بعمارتها[2].. ولكنه وجههم فقط إلى رؤيتها في

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) سيأتي الحديث عن عمارة الأرض عند الكلام عن "المقتضى الحضاري" للا إله إلا الله.

حجمها الحقيقي، لكي لا تحجب عنهم اليوم الآخر، وفي وضعها الصحيح، فلا يفتنهم متاعها الزائل عن المتاع المقيم..

* * *

يشتمل "المقتضى الإيماني" للا إله إلا الله على أمور بينها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديث "هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم"، "قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"(١).

ولكل واحدة من هذه المفردات مهمة تؤديها في "المقتضى الإيماني" ليس هنا مكان تفصيلها، إنما نشير إشارة عابرة إلى الإيمان بالقدر، ودوره في طمأنينة قلب المؤمن لما يصيبه في الحياة الدنيا من صروف..

إنه لا شيء يسكب الطمأنينة في قلب الإنسان أكثر من أن يؤمن "بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.."(٢) وأن مقادير الأمور بيد الله وحده، يصرفها كيف يشاء سبحانه.. ثم أن يؤمن أن إرادة الله به كلها خير: "إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن"(٣).

وفي مقابل القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية والخمر والمخدرات والجريمة، في الجاهلية التي لا تؤمن بالله واليوم الآخر، ولا تؤمن بقضاء الله وقدره توجد الطمأنينة في القلب المؤمن، ويوجد الرضا الذي يحمل عن الأعصاب إصرها..

ولكن الإيمان بقضاء الله وقدره -في منهج لا إله إلا الله- ليس هو التواكل السلبي، وليس هو القعود عن اتخاذ الأسباب، وليس هو التنصل من مسئولية الإنسان عن أعماله حين يخطئ فتصيبه نتائج خطئه.. إنما هو نسيج فريد عرفته الأجيال الأولى من المسلمين حق المعرفة، ويعرفه على مدار التاريخ كل من آمن بالله على بصيرة(٤).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) راجع إن شئت "مفهوم القضاء والقدر" من كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

ثانياً: المقتضى التعبدي

إذا كان المقتضى الإيماني قد اقتضى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، واقتضى التوحيد الخالص لله: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات؛ فإن المقتضى التعبدي يقتضي توجيه كل ألوان العبادة لله وحده بلا شريك، كما يقتضي أن يعبد الله بما أمر سبحانه أن يعبد به، لا بما يعنّ للعباد أن يعبدوه به.

ومحور القضية أنه إذا كان الله هو الإله الذي لا إله غيره، فتوجيه كل ألوان العبادة إليه وحده هو الأمر الطبيعي والمنطقي، كما أن التلقي من عند الله وحده في أمر العبادة -ككل أمر آخر- هو الأمر الطبيعي والمنطقي كذلك.

وقد ركز المنهج القرآني كثيراً على هذه القضية، لأنها تتصل اتصالاً مباشراً بقضية العقيدة. فليست العقيدة في هذا الدين أمراً مستسراً في داخل الضمير، هُلامِيّ الصورة غير محدد السمات.. إنها في أعماق القلب، نعم. وإنها أمر متصل بالجانب الروحي، نعم. وإنها لا تكون في صورتها الحقيقية حتى تملأ الوجدان، نعم.. ولكنها مع كل ذلك ليست شعاعاً هائماً في القضاء.. إنما هي نور محدد المسار، مهمته الكبرى أن يضبط مسار كل شيء، ويحدد له وضعه الصحيح.

إنها تصور معين، تصحبه مشاعر معينة، تصدر عنه أعمال معينة..

تصور معين لحقيقة الألوهية، بقدر ما يطيق الكيان البشري أن يتصور..

إن الفاني لن يحيط علماً بالأبدي الأزلي.. وإن الجزئي لن يحيط علماً بالكلي.. وما كلف البشر أن يحيطوا علماً بكنه الألوهية، وهم الذين حُجِبَ عنهم كنه كل شيء حتى الماديات المحسوسة التي يتعاملون معها في كل لحظة، يعرفون صفتها ولا يعرفون كنهها.. وها هو ذا "العلم" بعد أن فجر نواة الذرة وحلل محتوياتها، وقف عاجزاً أمام "الكنه" الذي تتكون منه، واكتفى بالصفات!

كلا! لم يكلف الله البشر أن يحيطوا بكنه الألوهية، وهو يعلم أنهم عاجزون..

ولكنه عرفهم بنفسه بالطريقة التي يعلم سبحانه أنهم يستطيعون أن يعرفوه بها، لأنه هو الذي خلق فيهم سبحانه هذه القدرة وأودعها فيهم؛ ليعرفوه..

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[1].

عرفهم بنفسه بصفاته وأسمائه.. وعلم سبحانه أنهم حين يعرفون هذه الأسماء والصفات حق المعرفة، فقد عرفوا ربهم، بالقدر المتاح لكيانهم، وبالقدر الذي تصلح به نفوسهم وحياتهم، وينالون به الخير في الحياة الدنيا وفي الآخرة..

لذلك كانت أسماء الله الحسنى وصفاته من صلب العقيدة، لأنها وسيلة البشر لمعرفة إلههم وخالقهم..

وللروح مسارها إلى الله.. تعرفه، وتؤمن بوجوده، وتتصل به، وتتلقى منه، بطريقة قد يعجز العلم عن إدراكها، ولكن عجز العلم لا ينفي أنها موجودة وفاعلة، فقد عجز العلم أن يدلنا كيف نفكر، وكيف نتذكر، ونحن في كل لحظة نفكر، وفي كل لحظة نتذكر، ولم يقل أحد إن عجز العلم عن إدراك الطريقة التي يتم بها التفكير والتذكر تنفي وجود أيهما، أو تنفي فاعليته، لأن "آثار" التفكير والتذكر بارزة في كل لحظة.

وأمر الروح كذلك.. فإن عجزنا عن إدراك طريقتها في التعرف على الله والاتصال به، لا ينفي وجودها وفاعليتها.. ولكن الفرق أن البشر كلهم –ما داموا في وضعهم الطبيعي– يفكرون ويتذكرون، وليس كل البشر تتفتح أرواحهم لتنطلق في مسارها الطبيعي، وهو الاتصال بالله.. لا لأن الله لم يخلق فيهم الحاسة.. فقد خلق الله كل عباده حنفاء، ولكن لأن المرض يصيب هذه الحاسة أكثر مما يصيب سائر الحواس.. وحين تمرض الروح تنطمس البصيرة وينقطع الإشعاع.

وما بنا هنا أن نتحدث عن عالم الروح وما فيه من عجائب.. وإنها لعجائب حقاً..

كيف يحس الإنسان في لحظة معينة –لحظة توهج معينة– أنه قد اتصل بخالقه، فدعا ربه، فاستجاب ربه له، فأحس بالاستجابة وأيقن.. وإذا هي حقيقة.. وإذا الله قد استجاب بالفعل!

كيف يتصل الإنسان بعالم الغيب في رؤيا صادقة تتحقق بذاتها أو برموزها بعد حين من الوقت قد يكون أياماً وقد يكون ساعات!

---

(١) الملك: ١٤.

كيف يتم التخاطر عن بعد (التليباثي) من وراء الحدود التي تدركها الحواس؟!

وبعض الناس تبهرهم هذه العجائب فيتركون عالم الشهادة كله، ليغرقوا أنفسهم في سبحات الروح! بدعوى التقرب إلى الله، والسعي إلى رضاه..

وما هكذا أمر الله البشر أن يعبدوه!

إنما حدد الله لهم طرقاً معينة يعبدونه بها، للروح فيها مكانها، في خشوع القلب، والإخبات إلى الله.. وللوعي فيها مكانه، في التفكر والتدبر في خلق الله وآياته.. وللجسم فيها مكانه، في القيام والقعود، والركوع والسجود، والتحرك بالطاعة في شتى الاتجاهات..

وتصبح العبادة بذلك أمراً شاملاً لكل ما يحبه الله ويرضاه.. وأمراً شاملاً لكل حياة الإنسان:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[1].

* * *

لا نتحدث هنا في هذه العجالة عن أنواع العبادة، فذلك شأن الدراسة المتخصصة.

ولكنا نتحدث عن أمور حولها، تتعلق بها، وتدخل في "المقتضى" التعبدي للا إله إلا الله.

لقد ركز المنهج القرآني كثيراً على قضية العبادة، لشدة ما كان قائماً في الجاهلية من انحراف في تلك القضية ولاتصالها المباشر بقضية العقيدة.. فحين تنحرف العقيدة تنحرف العبادة بالضرورة، وحين تستقيم العقيدة فالمفروض أن تستقيم العبادة على وضعها الصحيح.

تنحرف الجاهلية في أمر العقيدة وأمر العبادة لأسباب شتى..

فالتعظيم الزائد عن الحد آفة من آفات القلب البشري حين يتوجه بالحب إلى شخص معين، أو شيء معين، فينقلب التعظيم إلى تقديس، وينقلب الحب إلى عبادة!

---

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

وليس الحب والتعظيم في ذاته انحرافاً، فهو من "إفرازات" النفس السوية، خلقه الله ليؤدي مهمة معينة في حياة الإنسان. فلولا الحب والتعظيمُ الذي يتوجه به الناس إلى أنبيائهم، ما تلقوا منهم، ولا استقامت حياتهم على مقتضى التعليمات الربانية المنزلة عليهم. ولولا الحب والتعظيم الذي أوجبه الله ورسوله للعلماء، ما كان لهم في أممهم تأثير. ولولا الحب والتعظيم الذي يحسه الأبناء لآبائهم ما تربوا على أيديهم، ولا تلقوا منهم مقومات حياتهم..

ولكن الغلو في الحب والتعظيم هو الانحراف الذي يؤدي إلى التقديس، فيؤدي إلى العبادة..

وفي شرح ابن عباس -رضي الله عنه- لانحراف الجاهلية في أمر العبادة قال عن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر: "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد[١]، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت"[٢].

وما زالت البشرية تدور في رحى ذلك الانحراف، فيؤدي بها إلى لون من ألوان الشرك بالله.

* * *

أشرنا في التمهيد إلى انغلاق البشر في دائرة المحسوس، وأثر ذلك في العقيدة، فنشير هنا إلى أثره في العبادة كذلك.

إن الصنم الذي يعبد تجسيداً للإله في صورة محسوسة، لا يسمع ولا يرى ولا يتحرك، وإن ظن عبّاده أن روحاً خفية تسكن فيه، فتمنحه الحياة والقوة والبطش والهيمنة والجبروت! وهم يتعبدونه ويقدمون له القرابين، لترضى عنهم تلك الروح التي تسكنه، وتقضى لهم حوائجهم، وتكف غضبها عنهم! ولكن الصنم لا يتكلم! ولا تتكلم كذلك الروح الموهومة التي تسكنه، ومن ثم يحتاج الأمر إلى "كهنة" يقومون بالترجمة بين العبّاد وإلههم، وبين الإله والعبّاد! فيصدر الكهنة التعاليم باسم الإله، ويتلقون النذور والقرابين بحجة توصيلها إلى

(١) أي في تلك المرحلة.

(٢) أخرجه البخاري.

الإله، ثم يقولون للناس -إن شاءوا- إن الإله قد رضي، أو يقولون لهم: إنه يطلب المزيد؛ لأنه ما يزال غضبان!

ويستمتع الكهنة بسلطان عظيم على الناس في الجاهلية، لأنهم هم "الوسطاء" الذين تتم من خلالهم عملية العبادة، وتتم عن طريقهم عملية "التسليم والتسلم" بين العبّاد وبين الإله!

وكثيراً ما كان أولئك الكهنة يمارسون إلى جانب الكهانة ألواناً من السحر، ككهنة فرعون الذين قابلوا موسى -عليه السلام- بحبالهم وعصيهم، فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. ويقومون -من خلال كهانتهم وسحرهم- بتعبيد البشر لغير ربهم الذي خلقهم، سواء لبشر -مقدس- يحكمهم، أو صنم -مقدس- يتأله عليهم.. كلاهما طاغوت..

ويعلم الله كم يسخر أولئك الكهنة في دخيلة أنفسهم من أولئك العبّاد الذين يهرعون لتنفيذ أوامرهم وتعليماتهم كأنها حقيقة! ولكنهم يجيدون التمثيل! فيتظاهرون بالجد الصارم في أداء طقوس العبادة؛ ليستديموا سلطانهم على الناس، ولينتفشوا هم ويتضخموا على حساب غفلة الناس!

وفي الجاهلية يأنس الناس للوسطاء، لأنهم -في هبوطهم وانغلاقهم- يحسون بالوحشة من الإله المنزه الذي لا تدركه الأبصار، فيأنسون للكائنات الوسيطة، التي يتصورونها ذات طبيعة مزدوجة: ناسوت ولاهوت.. جانب بشري وجانب إلهي.. يلتقون مع البشر بجانبهم البشري، ويلتقون بجانبهم الإلهي مع الإله! ويكونون "محطة" في الطريق، يتزود الناس فيها بالطاقة اللازمة لرحلة "الفضاء"، إلى الأزلي اللانهائي الذي لا تدركه الحواس ولا تحده الحدود!!

من أجل هذه الانحرافات كلها، التي تشمل العقيدة والشعيرة والشريعة[1].. ركز المنهج القرآني على تحديد هذه القضية تحديداً حاسماً، وتنزيه العبادة من كل لون من ألوان الشرك يمكن أن يهجس في بال الإنسان..

(١) سنتكلم في الفقرة القادمة (ثالثاً) عن المقتضى التشريعي للا إله إلا الله.

وقد رأينا –من تجربة الواقع– أن هذه الهواجس قد ألمت بالأمة الإسلامية ذاتها، بعد فترة من تنزيه العبادة، والارتفاع بها إلى المستوى اللائق بجلال الله، واللائق بالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم..

فقد جاءت الصوفية ببدع كثيرة تفسد صفاء العقيدة وصفاء العبادة..

ولا نتحدث هنا عن الخبل الواضح في فكرة الاتحاد، والحلول، ووحدة الوجود، مما يتنافى تنافياً كاملاً مع التوحيد الذي جاء به الرسل جميعاً، وعلى رأسهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وهذا التفكير –في حقيقته– نتاج وثني صريح، سواء جاء من الهند أو من فارس أو من أي مكان في الأرض..

إنما نتحدث عن بدع أخرى نشأت مع الصوفية، هي عبادة الأضرحة والأولياء، وتضخم الشيخ في حس المريد حتى يصبح وسيطاً بينه وبين الله.. وتوجيه ألوان من العبادة إلى أولئك "المشايخ" أحياء وأمواتاً لا يجوز توجيهها لغير الله.

إنها ردة جاهلية..

صحيح أن الناس اليوم لا يعبدون صنماً منحوتاً كما كان يفعل المشركون يومذاك.. ولكن كيف نسمي التمسح بالضريح التماساً للبركة، والدعاء عنده رجاء الاستجابة، وطلب المعونة من صاحب الضريح، والاستغاثة به من الكرب، والإيمان بأنه ذو حظوة عند الله، يستطيع بها أن يغير مجرى الأقدار؟! أو الإيمان بأن الله قد عهد إلى الأقطاب والأبدال أن يتصرفوا في ملك الله، فإذا استعطفهم مريدوهم وتضرعوا إليهم صرّفوا الأمور لصالحهم، وحموهم من الأخطار..

ألم يكن مشركو الجزيرة يقولون: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[1]؟! أي: لا نعبدهم لذواتهم ولكن لما لهم من حظوة عند الله؟!

أما الشيخ والمريد فبدعة أخرى من بدع الصوفية الخطيرة..

(١) الزمر: ٣.

ولا يعنينا هنا أن نذكر كيف بدأت البدعة، ولا أن العامة قد ارتموا في أحضان الصوفية لقلة العلماء المربين الذين يعلمون الناس دينهم على النهج القرآني الواضح السهل البليغ المؤثر، وعلى منهج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي يقرب الحقائق للناس حتى يتشربوها في يسر، وترسخ في نفوسهم فلا يمحى أثرها.. إنما وجد العامة بدلاً من ذلك من يتكلم عن العقيدة كأنها معاظلات ذهنية تجريدية فلسفية –وخاصة فيما يتعلق بالذات الإلهية والأسماء والصفات– تجهد الذهن ولا تحرك القلب، ووجدوا المتخصصين في الفقه يتحدثون فيه لا على أنه "دين" نزل لينظم حياة البشر على الأرض، ويربط قلوبهم بالله وهم يأتمرون بأمره وينفذون تعاليمه، ولكن كأنه قضايا جافة مبتوتة الصلة بالوجدان الحي.. لذلك هرب العامة من معاظلات علم الكلام في العقيدة، ومن جفاف الدراسات الفقهية، إلى الملجأ الذي رأوه يشبع وجدانهم الروحي الظامئ، ووجدوا فيه راحتهم النفسية التي افتقدوها هنا وهناك..

ذلك يفسر ولا يبرر.. فلا شيء يبرر الانحراف عن طريق الله القويم:

(وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)[1].

جاء الإسلام؛ ليلغي كل وساطة بين البشر وربهم، وليعقد الصلة مباشرة بين العبد والرب:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[2].

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[3].

وجاءت الصوفية؛ لتجعل بين العبد وربه وسطاء وشفعاء، سواء كانوا من الأموات أو الأحياء.

وجاء الإسلام؛ ليخرج من هذه الأمة "علماء" و"فقهاء" يعلمون الناس أمر دينهم:

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٨٦.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)[1].

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)[2].

وجعل أولئك العلماء والفقهاء أئمة ومعلمين ومربين، وقدوة للناس، ولم يجعلهم "كهنة" يختصون "بالطقوس".. ذلك أنه لم يكن عقيدة وشعائر فحسب.. إنما كان عقيدة وشريعة ومنهجاً كاملاً للحياة، لذلك يحتاج الناس في ظله إلى علماء وفقهاء يعلمونهم أصول دينهم ومحتوياته ومتطلباته.. أما حين يكون الدين عقيدة فحسب، وطقوساً تتعلق بالعقيدة، فهنا يظهر "الكهنة"؛ ليكونوا وسطاء بين الناس وربهم، ويظل الوسيط يتضخم في حسهم حتى يخرج عن طبيعته البشرية الخالصة، ويصبح في حسهم مزدوج الطبيعة فيه ناسوت ولاهوت!

جاء الإسلام؛ ليجعل الدين خالصاً لله، وجاءت الصوفية؛ لتحوّل الشيخ في حس المريد إلى وسيط بين الناس وربهم، بحجة أنه مبارك عند الله، ترجى بركته؛ ليقرب الناس إلى الله زلفى، وليجعل الله يحيطهم برحمته، فكأنما له شركة في الأمر مع الله، مع أن الله قال لرسوله الحبيب -صلى الله عليه وسلم-: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)[3]!

وجاء الإسلام؛ ليقرر بشرية الرسول -صلى الله عليه وسلم-، بشرية خالصة، لا يخالطها شيء من "اللاهوت"، فغلت الصوفية في حبه وتعظيمه، حتى جعلت كأنما خلق الله الخلق؛ ليشاهدوا الأنوار المحمدية، وليس أن الله بعث رسوله -صلى الله عليه وسلم- لهداية البشرية:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[4].

ثم جعلوا من هذا التعظيم ذاته وسيلة لتضخيم الشيخ في حس المريد، بدعوى أن الشيخ يرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في منامه، ويتلقى منه مباشرة كلاماً يقوله للناس!![1].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) التوبة: ١٢٢.

(٣) آل عمران: ١٢٨.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

* * *

منهج العبادة في هذا الدين واسع شامل، لا يقتصر على الشعائر التعبدية التي تواضع الناس على أن يسموها "العبادة".. إنما هذه الشعائر –على كل أهميتها التي جعلتها تمثل "الأركان" في هذا الدين– هي جزء فقط من العبادة المفروضة:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[٢].

فالصلاة والنسك تمثل الشعائر.. ولكن المطلوب أكبر من هذا.. المطلوب أن تكون الحياة كلها حتى الموت، بل الموت ذاته، عبادة موجهة إلى الله الذي لا شريك له. أي أن يشمل المنهج التعبدي كل لحظة وكل عمل وكل فكر وكل شعور..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٣].

فإذا كان هدف خلق الجن والإنس محصوراً –بالنفي والاستثناء– في عبادة الله، فهل تكفي الشعائر المفروضة أن تملأ مساحة الحياة كلها حتى الموت؟!

إنما يتحقق ذلك حين تكون العبادة شيئاً شاملاً لكل جوانب الحياة..

وهي كذلك بالفعل في الإسلام..

الشعائر تستغرق وقتها المكتوب لها، إن كانت صلاة أو زكاة أو صياماً أو حجاً، وقد يزيد الإنسان مساحتها بالنوافل، ولكنها لا تبلغ أن تملأ مساحة الحياة كلها، ولا يستطيع الإنسان كذلك أن يملأ بها مساحة الحياة، فإنما ذلك شأن الملائكة الذين خلقهم الله من نور، فهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)[٤] (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

---

(١) ينبغي أن نذكر –للحق– أنه ليس كل من ينتمي للصوفية تقع منه هذه الانحرافات، وأن هناك ممن ينتسبون للصوفية من كان سليم العقيدة وعاملاً في الأرض بمقتضى الشريعة ومجاهداً في سبيل الله، وهؤلاء في الحقيقة من "الزهاد" وإن أخذوا سمة الصوفية.

(٢) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) الأنبياء: ٢٠.

يُؤْمَرُونَ)[1]. أما الإنسان الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ثم نفخ فيه من روحه، فإن له جسداً يفتر وعقلاً يشرد، فلا يطيق أن يسبح الليل والنهار دون فتور..

ولم يكلفه الله ذلك، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو الذي خلقه على الهيئة التي خلقه بها، ويعلم سبحانه حدود طاقاته، فلا يكلفه ما لا طاقة له به..

ومع ذلك كلفه أن تكون حياته كلها لله، وقال سبحانه إنه لم يخلقه إلا للعبادة فحسب..

فهل يتحقق ذلك إذا كانت العبادة المطلوبة هي الشعائر التعبدية فحسب؟

كلا! إنما يتحقق حين يتسع معنى العبادة فيدخل فيه كل نشاط الإنسان في الأرض.. وذلك حين يرتبط العمل كله بلا إله إلا الله، وتصبح لا إله إلا الله -بكل مقتضياتها- هي منهج الحياة..

السياسة عبادة.. حين تكون تطبيقاً لشريعة الله، وتطبيقاً للعدل الرباني في واقع الأرض، وتنمية للخير في نفوس الناس، وكبتاً للشر، وتعبيداً للناس لربهم وحده، وتحريراً لهم من الطواغيت..

النشاط الاقتصادي عبادة.. حين يكون جمعاً للمال من الكسب الحلال، وإنفاقاً في الطيب من الأمور.. سواء كان نشاطاً فردياً أو جماعياً، أو كان نشاط الدولة..

التعبير الفني عبادة.. حين يكون دعوة -بالأساليب الفنية المشروعة- إلى الخير، ومحاربة للشر، وحثاً للناس أن يجاهدوا لتعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وإعلاء لكلمة الله..

بل "حتى اللقمة يضعها في في زوجته" عبادة كما قال -صلى الله عليه وسلم-[2]، ليعلّم الناس أن العبادة تشمل كل كبيرة وصغيرة في حياة الإنسان.

* * *

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد.

والعبادات كلها أمر مقصود للدنيا والآخرة معاً في المنهج الرباني.. سواء كانت شعائر تعبدية أو نشاطاً حيوياً يقوم به الإنسان..

ليست هناك عبادة للآخرة وحدها كما يسبق أحياناً إلى ظن بعض الناس. فقد نزل هذا الدين لإصلاح أمر الناس في الحياة الدنيا، سواء عقيدته وشريعته.. سواء عباداته ومعاملاته.. وكل شيء فيه:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..)[(١)].

ولذلك ترتبط الدنيا بالآخرة في هذا الدين في كل جزئية من جزئياته، ويعيش الناس في ظله بجوارح عاملة في الحياة الدنيا وقلوب متعلقة بالآخرة..

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ)[(٢)].

تنهى عن الفحشاء في الدنيا.. والأجر في الآخرة. فيصلي المؤمن ابتغاء وجه الله، ولينال أجره في الآخرة، وفي الوقت ذاته ينتهي عن الفحشاء والمنكر، فتصلح الحياة الدنيا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[(٣)].

تتقون في الدنيا، فتصلح حياتكم في الأرض.. والأجر في الآخرة.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)[(٤)].

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)[(٥)].

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

(٣) البقرة: ١٨٣.

(٤) التوبة: ١٠٢.

(٥) المعارج: ٢٤-٢٥.

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)[١].

فالتطهير والتزكية ومواساة الغني للفقير من مال الله الذي آتاه، وقيام ولي الأمر بأخذ الزكاة وإنفاقها في أبوابها التي حددها الله.. كل هذا يتم في الدنيا.. والأجر في الآخرة.

(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)[٢].

يتم هذا كله في الدنيا، والأجر في الآخرة، فتكون العبادة للدنيا والآخرة في آن.

ومن الجانب الآخر ليس هناك عمل في حياة المسلم الملتزم بلا إله إلا الله –بكل مقتضياتها– يكون للدنيا وحدها منقطعاً عن الآخرة.. حتى علاقة الجنس التي قد ينظر بعض الناس إليها على أنها جسدية بحتة، أرضية بحتة، يقول فيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

"وإن في بضع أحدكم لأجراً" قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليأتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر؟! "قال أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر"[٣].

فتصبح من ثم أمراً دنيوياً وأخروياً في ذات الوقت..

وهكذا يشمل المقتضى التعبدي للا إله إلا الله كل نشاط الحياة، ويصبح الإنسان عابداً لله في كل لحظة، سواء كان قائماً بشعيرة من الشعائر، أو ذاكراً لله في سره أو جهره، أو مستغرقاً في عمل يقوم به ابتغاء وجه الله، أو كافًّا نفسه عن شهوة من شهواتها أو هاجس شر ألم بها، حياء من الله وابتغاء مرضاته.. ويصبح عندئذ من الذين قال الله فيهم:

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) الحج: ٢٧-٢٨.

(٣) أخرجه مسلم.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ،نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)[١].

ثالثاً: المقتضى التشريعي

أشرنا من قبل إلى أن "لا إله إلا الله" لم تكن قط عقيدة فحسب، وإنما ارتبط بها في جميع الرسالات السماوية توجيهات لتنظيم حياة الناس في الأرض، وإن كان لم يصلنا عنها إلا إشارات في القرآن الكريم. وأنه منذ الرسالة التي أنزلت على موسى –عليه السلام– على الأقل– ارتبطت لا إله إلا الله "بدستور" كامل للحياة، وأن هذا الدستور كان دستوراً مؤقتاً في حالتي اليهود والنصارى، وافياً بحاجات بني إسرائيل في ذلك الوقت، سواء الذين آمنوا بموسى –عليه السلام– أو الذين استحياهم عيسى –عليه السلام– من تلك الأمة وقالوا "إنا نصارى".. حتى جاءت الرسالة الأخيرة، المقدرة في علم الله؛ لتكون هي الرسالة الخاتمة، الموجهة إلى البشرية كافة، والتي اكتمل فيها التشريع، ليبقى وافياً بحاجات البشرية إلى يوم القيامة.

ولن نتحدث هنا عن تفصيلات هذه الشريعة، فذلك مبحث متخصص ليس مكانه هذه العجالة. إنما الذي نحن بصدده هنا هو تأكيد الصلة الوثيقة بين لا إله إلا الله وبين التحاكم إلى شريعة الله، حيث طغى الغزو الفكري وضغط "الأمر الواقع" على بعض أبناء هذه الأمة فصارت هذه البديهية المسلمة في حاجة عندهم إلى بيان..

يقول تعالى عن المشركين إنهم يقولون:

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[٢].

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ)[٣].

---

(١) فصلت: ٣٠-٣٢.

(٢) ص: ٥.

(٣) النحل: ٣٥.

وتحدد هاتان الآيتان الكريمتان جذور الشرك الثلاثة التي جاء الإسلام؛ ليجتثها اجتثاثاً ويجعل الدين كله لله. إنها -على وجه التحديد- عدم الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وتوجيه العبادة لغير الله، والتحريم والتحليل من دون الله، أي أمر العقيدة، وأمر العبادة، وأمر التشريع.

ويقابل تلك الجذور الثلاثة للشرك جذور ثلاثة للإيمان: الإيمان الجازم بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وتوجيه العبادة كلها لله وحده دون شريك، والتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون كل الشرائع، أي مرة أخرى: أمر العقيدة وأمر العبادة وأمر التشريع، وتلك هي المقتضيات الرئيسية للا إله إلا الله، التي يعتبر نقضها أو نقض أي واحد منها نقضاً للا إله إلا الله[1].

وخلال ثلاثة عشر قرناً كاملة من عمر هذه الأمة لم يدر في خلدها قط أن المسلم يمكن أن يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الله، أو أنه يظل مسلماً إذا تحاكم عالماً راضياً إلى شريعة غير شريعة الله.

ولكن القرن الأخير غيّر من أحوال هذه الأمة أموراً كثيرة، ما كان يخطر على بال أحد أن تتغير!

لقد ظل خط الانحراف يتزايد خلال القرون، وتبعد الأمة رويداً رويداً عن حقيقة الإسلام التي عاشتها فترة من الزمن غير قصيرة[2].. ولكنها على الرغم من كل تراجعها لم تفكر في التراجع عن أمرين اثنين: الصلاة، والتحاكم إلى شريعة الله، بوصفهما سمة لا يمكن للمسلم أن يخرج عنهما لتظل له صفة الإسلام.

وفي القرن الأخير.. حين تزايد تراجع الأمة، واشتد ضغط الأعداء عليها، حربياً وسياسياً واقتصادياً، واشتد الغزو الفكري حتى بلغ غاية مداه.. حدث ما لم يكن يخطر في بال أحد، وتراجعت الأمة عن آخر نقطتين كانت تتشبث بهما، وزين لها الشياطين أنه الآن.. الآن فقط.. أخذت الأمة تدرج على مدارج الرقي، وتتقدم إلى الأمام!!

---

(١) سنتكلم في فصل قادم عن نواقض لا إله إلا الله.

(٢) اقرأ إن شئت فصل "خط الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

وقال الشياطين للأمة التي كانت قد نسيت حظاً كبيراً من دينها: انظروا إلى أوربا! إنها لم تتقدم إلا بعد أن نبذت الدين وأبعدته عن أن يحكم واقع الحياة!

وقالوا لها كذلك: كيف تحكم الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً واقعاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الواقع الذي نزلت له؟ أليست الدنيا تتطور؟ لا بد من تطوير الشريعة لتلائم ما حدث في الحياة من تطور!

وبسبب الجهالة التي كانت الأمة قد وقعت فيها بالنسبة لدينها، وبسبب التخاذل أمام الغزو الفكري وأمام ضغط "الأمر الواقع" الذي أحدثه الأعداء في بلاد الإسلام.. صدّق هذه الأباطيل جيل كامل من الناس.. إلا ما رحم ربك!

لم يكونوا يجدون أنفسهم؛ ليناقشوا تلك الأباطيل.. فإن الخواء الذي أصابهم من التخلف العقدي والإيماني، لم يترك لهم شيئاً من استعلاء الإيمان، الذي أخبرهم ربهم أن المؤمن يحس به ولو كان منهزماً في المعركة أمام الأعداء:

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[1].

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[2].

كما أن التخلف الحربي والعلمي والاقتصادي و"التكنولوجي" الذي نشأ عن التخلف العقدي والإيماني[3]، جعلهم ينسحقون في داخل نفوسهم في مواجهة التفوق الغربي في كل هذه الميادين.. فلا يجرؤ أحدهم أن يهمس –ولو في سره– أنْ ربما كان النموذج الغربي غير صالح في ذاته، أو غير صالح لنا على أقل تقدير!

وي! وهل يجوز للقزم أن ينتقد العملاق؟ أي جرأة! بل أي جنون؟!

* * *

---

(١) آل عمران: ١٣٩.

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) اقرأ إن شئت فصل "آثار الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

فأما أوربا ودينها، وتقدمها بعد أن نبذت دينها، فقد تحدثت عنه في أكثر من كتاب[1].

وخلاصة القول أن أوربا لم تعرف قط دين الله كما أنزل، إنما الذي عرفته وتشبثت به اثني عشر قرناً كاملاً هو دين بولس -الذي كان اسمه شاول أيام يهوديته قبل أن يعلن الدخول في النصرانية- وهو دين مدخول، جمع من النقائض ما يعجب الإنسان من قوم صدقوه، وتشبثوا به، ورفضوا كل محاولة لتصحيحه، وقاتلوا قتالاً وحشياً من أجله.. ثم أخيراً نبذوه[2]!

ليس العجب أنهم نبذوه.. بل العجب أنهم صدقوه، وتشبثوا به كل هذه القرون..

أفيجيء مسلم يعرف دين الله حقاً فيقول: أريد أن أنبذ ديني كما نبذت أوربا دينها لأتقدم؟!

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ)[3].

وأما لوثة التطور التي أصابت أوربا فما كان ينبغي لها أن تتدسس إلى قلوب الناس وعقولهم في العالم الإسلامي، لو أنهم عرفوا دينهم حق المعرفة، وقرأوا تاريخهم، واطلعوا على تراثهم!

إن أوربا ظلت حياتها كلها تتخبط من طرف إلى طرف دون أن تتوقف عند نقطة الوسط الموزونة، لأن حياتها كلها كانت ردود فعل متوالية لمظالم وانحرافات يقع أمثالها في كل جاهلية من جاهليات التاريخ.

ونشهد أن أوربا فيها حيوية، وجلد، ومثابرة، وعزيمة.. ولكن هذا كله بغير هدى الدين الصحيح يذهب هباء في الدنيا والآخرة.. فأما في الدنيا؛ فلأن ما فيه من انحرافات يقضى عليه في النهاية وإن طال الأمد[1]، وأما في الآخرة فلقوله تعالى:

---

(١) "مذاهب فكرية معاصرة" و"رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" و"حول تطبيق الشريعة".

(٢) مما ينبغي تذكره أن أوربا نبذت الدين ولكنها حافظت على عصبيتها الصليبية ضد الإسلام.

(٣) فاطر: ١٩-٢٠.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)[٢].

وفي واحدة من هذه التخبطات، انتقلت أوربا من فكرة الثبات المطلق في كل شيء إلى فكرة التطور المطلق في كل شيء، ولم تقف عند نقطة الوسط الموزونة التي تدرك أنه ليس كل شيء في حياة الإنسان ثابتاً، أو ينبغي له أن يثبت، وليس كل شيء متغيراً، أو ينبغي له أن يتغير. إنما في حياة الإنسان ثوابت ومتغيرات.. لا الثوابت ينبغي لها أن تتغير، ولا المتغيرات ينبغي لها أن تثبت، وإلا فسدت حياته ولم يعد لها "ميزان".. والله يقول:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[٣].

* * *

قضية التشريع قضية ذات صلة مباشرة بقضية الألوهية..

وهي ليست مرتبطة بها برباط واحد، وإنما برباطين اثنين في آن واحد..

فأما الرباط الأول فهو أن التشريع حق خالص للخالق سبحانه وتعالى بمقتضى أنه هو الخالق:

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)[٤].

فهو صاحب الأمر، أي الذي يحق له أن يقرر.. أن يقول هذا يكون وهذا لا يكون. هذا صواب وهذا خطأ. هذا حسن وهذا قبيح. هذا حلال وهذا حرام..كل ذلك؛ لأنه هو الخالق. هو الذي خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، ووهب له ما وهب من عقل مفكر وحواس مدركة ونعم لا تحصى. وهذا الإنسان -الذي ينازع الله حقاً من حقوقه الخالصة- لم يخلق نفسه ولا غيره، ولم يرزق نفسه ولا غيره، إنما هو عالة على خالقه في

---

(١) كما انهارت الشيوعية أخيراً.

(٢) الفرقان: ٢٣.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) الأعراف: ٥٤.

الصغيرة والكبيرة، حتى شربة الماء التي يشربها، ونفس الهواء الذي يتنفسه، فضلاً عن وجوده أصلاً، وتيسير كل مستلزمات حياته له.

فأيهما إذن هو الذي يقرر؟ الذي يخلق أم الذي لا يخلق؟

لذلك يقول الله في هذه القضية: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)[١].

والمقصود الأول من الآية هو لفت النظر إلى أن الآلهة المزعومة التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية لا تستحق العبادة لأنها لا تخلق، كما جاء في آية تالية: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٢].

ولكن معنى الآية ينطبق على كل مدع للألوهية، وكل من اتخذه الناس رباً من دون الله. والأمران ينطبقان على مدعي حق التشريع من دون الله، فهو يجعل من نفسه نداً لله. الله يقول: هذا حرام فيقول هو: هذا حلال! والله يقول: هذا حلال فيقول هو: هذا حرام! والذين يتبعونه في التحليل والتحريم من دون الله قد اتخذوه نداً لله، كما قال تعالى في حق اليهود والنصارى:

(اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ..)[٣].

ولما اعترض عدي بن حاتم لجهله لمفهوم العبادة، وقال لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ما عبدوهم! قال له عليه الصلاة والسلام مبيناً حقيقة الأمر: ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم؟ فتلك عبادتهم إياهم[٤]!

ذلك هو الرباط الأول الذي يربط قضية التشريع ربطاً مباشراً بقضية الألوهية: أن حق التشريع هو لمن يخلق، وليس للذي لا قدرة له على الخلق، صنماً كان أو بشراً، حاكماً كان، أو محكوماً، فكلهم ينطبق عليه قوله تعالى:

---

(١) النحل: ١٧.

(٢) النحل: ٢٠.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) أخرجه الترمذي.

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)(١).

أما الرباط الآخر فمتعلق بصفات أخرى من صفات الله سبحانه وتعالى إلى جانب أنه "الخالق"، وهي أنه "اللطيف الخبير" و"الحكيم العليم".

إن الذي يشرع ينبغي له أن يكون حكيماً؛ لتكون تشريعاته صالحة، ويكون عليماً بأحوال البشر الذين يشرع لهم؛ لكي تكون تشريعاته مناسبة لكيانهم وأحوالهم، ويكون لطيفاً(٢)؛ ليعلم ما خفى من الأمور، ويكون خبيراً بما تحدثه تشريعاته من آثار، لكي لا يضع تشريعات ينجم عنها الضرر في الحاضر أو المستقبل. فمنذا الذي يزعم -من البشر جميعاً- أنه متصف بهذه الصفات، ومتصف بها أكثر من الله؟!

(قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ)(٣).

(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(٤).

وحين زعم الأوربي -بعد أن انسلخ من دين بولس، الذي ظن خطأ أنه دين الله -حين زعم أنه "شب عن الطوق، ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله".. فماذا فعل بتشريعاته؟!

ماذا فعل حين "حرر" المرأة؛ ليزيل ما كان واقعاً عليها من ظلم في المجتمع الأوربي، فأفسد أخلاقها، وأخلاق الرجل معها، وحطم الأسرة وشرد الأطفال، ونشر الشذوذ والجريمة؟

وماذا فعل حين ظل يخفف العقوبات على الجريمة حتى صارت الجريمة أمراً عادياً في المجتمع، وجزءاً من الحياة؟!

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) وردت كلمة "لطيف" في القرآن الكريم بمعنى عليم بما خفى من الأمور.

(٣) البقرة: ١٤٠.

(٤) البقرة: ٢١٦.

وماذا فعل حين أحل الربا وأقام عليه اقتصادياته، فبرز طواغيت الرأسمالية يمتصون دماء الكادحين ويستعبدونهم؛ ليزدادوا ترفاً وثراء ويزداد الفقراء فقراً وتعاسة؟

وماذا فعل حين جعل سياسته العالمية مبنية على حق الوحوش -التي تسمي نفسها الدول العظمى- في اقتراف ما يحلو لها من افتراس الصغار وإذلال كرامتهم، والاحتماء بعد ذلك بحق "الفيتو" من أن ينالها أي عقاب على جرائمها؟

وماذا.. وماذا.. وماذا من اختلالات واضطرابات وحروب ومجازر ومظالم على نطاق الأرض كلها، حين زعم الأوربي أنه "شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله"؟!

* * *

إذا تبينت لنا العلاقة الوثيقة بين قضية التشريع وقضية الألوهية، وأن حاكمية الله في الشريعة إن هي إلا جزء من حاكميته سبحانه في الكون كله، بما أنه هو الخالق الذي لا خالق غيره، الرازق الذي لا رازق غيره، المدبر المهيمن، العليم الحكيم:

(إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ..)[1].

(لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ..)[2].

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[3].

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) فاطر: ٣.

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)[(١)].

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ)[(٢)].

إذا تبينت لنا هذه العلاقة الوثيقة المباشرة، فإننا ننتقل إلى حديث سريع عن بعض ما تفردت به الشريعة الربانية التي قال الله في شأنها:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[(٣)].

إن حكم الجاهلية هو حكم البشر بعضهم لبعض.. فإن الآية الكريمة تبين أن هناك نوعين اثنين من الحكم لا ثالث لهما. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية. ومن ثم فكل حكم بغير ما أنزل الله هو حكم جاهلية أياً كان مصدره وأيا كانت صورته ومحتوياته.

وحين لا يلتزم الناس بشرع الله، فالبشر هم الذين يشرعون، سواء كان المشرع فرداً، أو جماعة من الناس، أو مجموع الناس كلهم.. فكلهم بشر، وحكمهم كله حكم جاهلية ما دام لا يلتزم بما أنزل الله.

وأول ما يلحظ الإنسان في الشريعة الربانية هو الشمول والإحاطة.

فحين اكتمل الدين، وقال تعالى: (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)[(٤)] كانت الشريعة الربانية قد أحاطت بكل جوانب الحياة البشرية، وشملت كل متطلبات الإنسان في حياته على الأرض.

وهناك ترد قضية الثابت والمتغير في حياة الإنسان، ويرد السؤال: كيف تمتد صلاحية الشريعة خلال القرون المتعاقبة والحياة دائمة التغير لا تثبت على صورة واحدة؟

---

(١) الشورى: ١٠-١٣.

(٢) الشورى: ٢١.

(٣) المائدة: ٥٠.

(٤) المائدة: ٣.

وهنا تبرز الجاهلية تقول: لا بد أن يشرع البشر لأنفسهم، لأن الشريعة الثابتة لا يمكن أن تتلاءم مع مستجدات الحياة، وقد وصل الإنسان إلى القمر، وفجر الذرة وصنع الأعاجيب!

والذين يقولون مثل هذا من "المسلمين!" لا يعرفون شيئاً عن شريعتهم الربانية، ولا يقرءون تاريخ أمتهم، ولا يراجعون تراثهم؛ لأنهم أداروا ظهرهم لهذا كله منذ دخلوا في عبودية الانبهار بما عند الغرب، وانسحقوا تحت الغزو الفكري، وضغط "الأمر الواقع" الذي أحدثه الغزو الصليبي في ديار المسلمين:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)[1].

إن في حياة الإنسان -كما في بنية الكون كله- ثوابت ومتغيرات..

وفي السنوات الأخيرة من تقدم العلم تبين الناس هذه الحقيقة بالنسبة للكون المادي. تبينوا أن هناك تغيراً دائماً، أو -كما يحلو لهم أن يسموه- تطوراً دائماً في شكل الكون: تموت نجوم وتولد نجوم.. يتجمع سديم وتتناثر كواكب.. تتحول معادن مشعة إلى أخرى غير مشعة ويتغير وزنها الذري.. ولكن هذا كله يتم في إطار محور ثابت قوامه تركيب الذرة الذي لا يتغير مهما تغير الشكل الخارجي للكون.

أما في حياة البشر فقد أدرك المسلمون حقيقة الثبات والتغير منذ التزموا بهذا الدين. منذ أخلصوا قلوبهم للا إله إلا الله، فاستنارت بصيرتهم بنور الله..

أدركوا أن في حياة الناس أموراً ثابتة لا يجوز أن تتغير، لأنها إن تغيرت تفسد الحياة؛ وأموراً دائمة التغير في شكلها، ولكنها محكومة في تغيرها بقواعد ثابتة لا تتغير، وإلا تحول التغير إلى فوضى لا يحكمها ضابط..

وأدركوا أن الشريعة الربانية تلتقي التقاء كاملاً مع هذه الحقيقة الكائنة في حياة البشر. ففيها ثوابت لا تتغير، تحدد الأمور الثابتة في حياة البشر. وفيها قواعد ثابتة تحكم ما هو

(١) فصلت: ٤٤.

عرضة للتغير الدائم بحكم انتقال حياة الناس من طور إلى طور.. وأن الله أنزل تفصيلات في الأمور الثابتة، سواء في كتابه المنزل، أو في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، بينما أنزل حكماً مجملاً في المتغيرات، ثم أباح للعقل المؤمن، الملتزم بمقتضيات لا إله إلا الله أن "يجتهد" في إنزال المستجدات على الأحكام الثابتة، فكان "الفقه" الذي بدأ مباشرة بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وانقطاع الوحي.. أي منذ قام المسلمون بالتطبيق العملي لهذا الدين، مستمدين من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ومستندين إليهما في كل الأمور..

والاجتهاد هو الأداة الدائمة للتوفيق الدائم بين الثابت والمتغير في حياة المسلمين، والأداة التي حفظت حياة المسلمين في إطار الشريعة الربانية عدة قرون..

وهنا يتحفز "العلمانيون" بدعاوى، يحسبون أنهم يبطلون بها شريعة الله!

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[١].

منهم من يقول: إن الحياة الإسلامية جمدت في القرون الثلاثة الأخيرة بسبب ثبات أحكام الشريعة، وعدم وفائها بالمستجدات الهائلة التي جدّت في حياة البشر..

وهؤلاء لا يدركون أنهم بهذه المقولة يخرجون من دين الله أصلاً، بل يخرجون من الباب الأكبر الذي يدخل منه المسلمون في دين الله، وهو باب العقيدة. لأنهم -وإن لم يعوا ذلك- ينفون عن الله جل وعلا صفة العلم وصفة الحكمة، كأنهم يتصورون -في جهالتهم- أن الله لم يكن يعلم -وهو يفرض هذه الشريعة- أن أحوال الناس ستتغير في القرون التالية، وأن الشريعة التي فرضها لن تصبح إذن وافية بما جد في حياة الناس! كما أن فرض شريعة غير صالحة للتطبيق في الظروف المتجددة أمر لا حكمة فيه، بل هو مجافٍ للحكمة تمام المجافاة!

ومنهم من يقول: إن الاجتهاد عملية بشرية.. وإن الذي يطبق ليس هو شرع الله، إنما هو فهم البشر لشرع الله! وإن شرع الله -على هذا المعنى- شيء لا وجود له في الحقيقة! إنما الموجود هو التصور البشري لشرع الله، وهذا قابل للتغير، كما أن الاختلاف حاصل فيه

(١) الصف: ٨-٩.

بالفعل بين فقيه وفقيه.. فلماذا نطالب بتطبيق شيء لا وجود له في الحقيقة، أو ليست له صورة محددة يمكن أن يقال: إنها هي -وليس غيرها- شرع الله!!

ويزيد على ذلك قوم آخرون فيقولون: ما دامت هي عملية بشرية، فلماذا لا نكون صرحاء مع أنفسنا، ونكون في الوقت ذاته من الشجاعة بحيث نتخذ قراراً حاسماً: أن نلغي من حسابنا تماماً شيئاً اسمه الشريعة. ونأخذ القانون الوضعي بلا تحرج، لأنه قانون "جاهز" و"متطور" ومساير لما حدث في حياة الناس من مستجدات! فوق أنه قانون لا قداسة له، لأنه من صنع البشر فنستطيع أن نلغيه متى نشاء، أو نعدله متى نشاء!!

وهؤلاء وهؤلاء -وإن كانوا "قانونيين!"[1]- يغالطون أنفسهم، أو يغالطون الناس مغالطة قبيحة مكشوفة..

فالاختلاف في تفسير النص وارد، والاختلاف في الاستمداد من القواعد الثابتة من أجل استنباط أحكام لما يجد من المصالح المرسلة وارد.. وهو أمر قديم عرفه الفقهاء منذ كان هناك فقهاء، وأقر بعضهم بعضا على مبدأ الخلاف، ولم يروا فيه ثَلْماً للشريعة ولا إلغاء لها، ولا تحويلاً لها إلى شيء صوري لا وجود له في الحقيقة..

والمغالطة القبيحة المكشوفة هي إغفال الحدود التي يجتهد فيها المجتهدون، وتصوير عملية الاجتهاد كأنها تجري بلا ضابط! إن الاجتهاد حدوده ألا يحل حراماً، أو يحرم حلالاً، وألا يخالف مقاصد الشريعة..

وفرق ضخم في عالم الواقع بين اجتهاد يلتزم بهذه الحدود -مهما اختلف المجتهدون فيما بينهم- واجتهاد لا ضابط له إلا النظر البشري، أو قل: الهوى البشري والقصور البشري!

والمسألة أوضح من أن تحتمل المِحال والمماحكة..

هل يستوي المجتمع الذي يجتهد الفقهاء فيه، ولكنهم يلتزمون -مهما اجتهدوا- بتحريم الفاحشة، والمجتمع الذي يؤدى فيه الاجتهاد إلى إباحة الفاحشة سوية وشاذة؟!

---

(١) معظمهم من القانونيين!

هل يستوي المجتمع الذي يجتهد الفقهاء فيه، ويلتزمون -مهما اجتهدوا- بتحريم الربا، والمجتمع الذي يؤدي الاجتهاد فيه إلى إباحة الربا وجعله هو أداة النشاط الاقتصادي.. المدمّر!

هل يستوي المجتمع الذي يجتهد الفقهاء فيه، ويلتزمون -مهما اجتهدوا- بتطبيق الحدود(١)، والمجتمع الذي يؤدي الاجتهاد فيه إلى التخفيف المستمر في العقوبة، الذي أدى إلى التزايد المستمر في الجريمة..؟!

أما إذا التزمنا في الاجتهاد بمقاصد الشريعة، فماذا يبقى للعلمانيين؟!

* * *

يلفت نظرنا كذلك في هذا الدين كون التشريع واحداً من الأدوات التي يصان بها المجتمع من الفساد، ولكن الشريعة لا تعمل وحدها. ومن ثم فليس الأمر فيها أنها "قانون" يمكن أن يستبدل به قانون آخر! إنما هو كتاب أحكمت آياته وفصلت من لدن عليم حكيم. إنه منهج متكامل في معالجة الأمور.. لا يأخذ الأمور فرادى، ولا يضع العلاج لها فرادى..

ولنأخذ نموذجاً من تطبيق الحدود..

حد السرقة قطع اليد..

وحين تعرض المسألة من خلال هذه الجزئية وحدها تتحفز بعض الألسنة للاستنكار باسم "إنسانية" التعامل حتى مع المجرم.. وتتململ بعض الأفكار في بعض الرءوس: أو لم يكن الأنسب أن تكون العقوبة أقل قسوة؛ السجن مثلاً مدة من الزمن..؟!

وينطلق هؤلاء وهؤلاء من جهل مطبق بالإسلام، وانبهار بالغرب يستعبد الأرواح..

إن الإسلام لا يأخذ الأمر من جانب العقوبة وحدها، ولا يبدأ العلاج بتطبيق العقوبة.. إنما العقوبة آخر شيء يلجأ إليه الإسلام..

---

(١) لا يعالج الإسلام الجريمة بالعقوبة وحدها، ولا يبدأ بالعقوبة، كما سيتبين في السطور القادمة.

إنما المنهج الرباني يهدف إلى منع أسباب الجريمة أولاً؛ لكي لا تحدث ابتداء[1]..

يبدأ بترسيخ الإيمان بالله واليوم الآخر، وإيجاد الصلة الحية بين العبد وربه.. الصلة التي تولّد في القلب الحياء من الله، والحب الذي يؤدي إلى الطاعة، والخوف الذي يؤدي إلى الامتناع عما يغضب الله:

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)[2].

ثم يقوي أواصر التواد والتراحم في المجتمع، وترسيخ "الأخوة" بين المؤمنين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[3].

ثم يشد رباط الأسرة، وهي المحضن الذي يتربى فيه الطفل صغيراً، لينشأ على أخلاقيات الإسلام[4].

وبالإضافة إلى هذه "المعنويات" كلها –وإن كانت كلها معنويات ذات واقع حسي– يجعل في أموال الأغنياء فريضة يجمعها ولي الأمر– ويقاتل من يمتنع عن أدائها– وينفقها على المحتاجين إليها..

ويجعل بيت المال في النهاية مسئولاً عن كل من قعدت به ظروفه عن العمل، أو جعلته دون المستوى اللائق بالنسبة لحال الأمة كلها من الغنى أو الفقر..

فإذا كان ذلك كله فلماذا يسرق السارق؟!

إنه –إن فكر في السرقة– فهو غير معذور!

وعندئذ تكون قسوة العقوبة التي تنتظره وسيلة لصده عن التفكير في ارتكاب الجريمة..

---

(١) اقرأ إن شئت فصل "الجريمة والعقاب" من كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام".

(٢) الإسراء: ٥٧.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) سنتكلم في الفقرة التالية (رابعاً) عن المقتضى الأخلاقي للا إله إلا الله.

ومع ذلك كله فإنه إن سرق بالفعل فلا يطبق عليه الحد حتى يتأكد الحاكم أنه غير معذور!

سرق غلمان لحاطب بن بلتعة ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم إلى عمر –رضي الله عنه– فأقروا فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم، فلما ولّى رده وقال لحاطب: والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له.. لقطعت أيديهم. فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك. ثم التفت إلى المزني فقال: بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة. فقال لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة!

أي روعة في العدل الرباني، المتمثل في شريعة الله..!

أين يذهب العلمانيون من وجه الله وهم يرفضون هذا الهدي الرباني الرائع ويبحثون عن قوانين ظهر فسادها في بلادها، وضجرت منها مجتمعاتها؟!

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[١].

* * *

تلك إشارات عابرة إلى بعض ما تميزت به الشريعة الربانية، ولكن هذا ليس مبحثنا في هذه العجالة. إنما هدفنا هنا التركيز على نقطة معينة هي الصلة الوثيقة بين العقيدة والشريعة في دين الله، وأن الحكم بما أنزل الله هو أحد المقتضيات المباشرة للا إله إلا الله، كالمقتضى الإيماني والمقتضى التعبدي.. كلها جذور أساسية للإيمان، لو نقضت كلها أو نقض واحد منها ذهب أصل الإيمان.

رابعاً: المقتضى الأخلاقي

استوقفني كثيرا حديث للرسول –صلى الله عليه وسلم–:

"أربع من كُنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر"[١].

---

(١) المائدة: ٥٠.

استوقفني لأن النفاق قضية متعلقة بالعقيدة، والكذب والغدر وخلف الوعد والفجور في الخصومة قضايا أخلاقية..

سبحان الله! كيف يتصور قوم إذن أن الأخلاق لا صلة لها بالعقيدة؟!

لقد كانت صلة الأخلاق بالعقيدة قضية بديهية عندي.. وكنت أكتب عن "أخلاقيات لا إله إلا الله" مستيقناً وجود هذه العلاقة التي لا تنفصم بين لا إله إلا الله وتلك الأخلاقيات..

لذلك عجبت ذات مرة، في أثناء مناقشة رسالة جامعية لطالب في قسم العقيدة، ركز فيها على صلة الأخلاق بالعقيدة في الإسلام، حين قال له أحد المناقشين محتداً: ما علاقة الأخلاق بالعقيدة؟! العقيدة كما تعلمناها في دراستنا إلهيات ونبوات وسمعيات! أما الأخلاق فموضوع مستقل!

دهشت لأن المناقش كان رجلاً مشهوداً له بحسن الاطلاع وسعة الأفق، وهو داعية ذو شهرة واسعة.. وكان تعليقي يومها أن الفصل بين لا إله إلا الله ومقتضياتها هو السبب الأكبر فيما آلت إليه حال الأمة من الضياع..

* * *

في أول سورة أنزلت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لفتة أخلاقية واضحة، بينما السورة أنزلت لبيان العقيدة الصحيحة التي بعث بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمواجهة الجاهلية التي تملأ يومئذ وجه الأرض.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْداً إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى،

(١) أخرجه مسلم.

أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى، كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَه، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)[1].

إنها بداية تعريف الناس بربهم؛ ليعبدوه وحده بلا شريك..

وفي غير هذا الكتاب[2] أشرت إلى أن بداية التعريف كانت بذات المعلومات التي كان المشركون يعرفونها بالفعل: أن الله هو الذي خلق، وأنه خلق الإنسان من علق. وتلك معلومات سجل الله عليهم أنهم كانوا يعرفونها ويقرون بها:

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[3].

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[4].

(كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ)[5].

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)[6].

ولكن هذه المعرفة التي سجلها الله عليهم لم تكن تؤتي ثمارها في قلوبهم، لأن الشرك كان قد أفسد البذرة الحية في تلك القلوب.. بذرة الإيمان بالله الواحد، التي فطر الله الناس عليها:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[7].

---

(١) العلق.

(٢) في كتاب "دراسات قرآنية".

(٣) لقمان: ٢٥.

(٤) الزخرف: ٨٧.

(٥) المعارج: ٣٩.

(٦) الواقعة: ٦٢.

(٧) الروم: ٣٠.

فكان لا بد من استنبات البذرة من جديد، لتؤتى -في هذه المرة- ثمارها الصحيحة، فبدأ الوحي بتعريف الناس أن ربهم هو الذي خلقهم من علق، وأنه علم بالقلم؛ علم الإنسان ما لم يكن يعلم، فله الفضل في إيجاد الإنسان أصلاً، وصيرورته إنساناً متكاملاً بعد أن كان علقة لا تكاد ترى، وله الفضل فيما يتحصل عليه الإنسان من العلم، بينما الناس يولدون لا يعلمون شيئاً:

(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

ومقتضى هذا الفضل كله من جانب الله، أن يشكر الإنسان النعمة، ويتوجه بالعبادة إلى خالقه وحده، لا يشرك به شيئاً.. ولكن النفوس المنحرفة "تطغى" عن الحق، فلا تقف عنده، بل تقتحمه وتتخطاه..

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى).

ونقف هنا عند الطغيان.. إنه "خُلُق".. خلق جاهلي يُذْكر من أسبابه هنا سببان رئيسيان: توهم الإنسان أنه استغنى عن خالقه، بسبب ذات العطاء الذي تفضل الله به عليه! وعدم إيمان ذلك الإنسان بأن هناك رُجْعىَ إلى الله، يحاسب الله فيها عباده على ما اقترفوا في حياتهم الدنيا..

ومن ثم تنبه الآيات إلى ذلك المرض الذي يصيب النفوس في الجاهلية فتطغى، وتقدم العلاج اللازم لذلك، وهو التنبيه إلى أن ما يتمتع به الإنسان من نِعمٍ هو من عند الله، وأن هناك رجعى وحساباً وثواباً وعقاباً..

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى...).

ونمضي مع الآيات حتى قوله تعالى: (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ).

(١) النحل: ٧٨.

هنا خلق آخر من أخلاق الجاهلية.. الكذب.. والكذب هنا أوسع مما اصطلح الناس فيما بينهم أن يسموه كذباً، إنه كذب على الله. وكذب على الفطرة التي فطرها الله. وكذب على الحق الذي خلق الله به السموات والأرض.. ولكنه أولاً وآخراً خلق..

وفي المقابل تُذْكَر الأخلاقيات التي يتحلّى بها المؤمنون؛ التقوى في مقابل الطغيان. والسجود والاقتراب من الله بالعمل الصالح في مقابل الكذب على الله وعلى الحق..

* * *

هذه اللفتة الواضحة إلى "الأخلاق" في أول سورة عن العقيدة ذات دلالة ولا شك. إن هناك اقتراناً واضحاً بين العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وبين العقيدة المنحرفة والأخلاق المرذولة..

وتتوالى السور القرآنية فتتضح الصلة أكثر بين العقيدة والأخلاق:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[(١)].

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) المؤمنون: ١-١١.

هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)[1].

هل يمكن فصل العقيدة في هذه الآيات عن الأخلاق؟ كلا! إنها أخلاقيات لا إله إلا الله!

* * *

يلفت النظر في "المقتضى الأخلاقي" للا إله إلا الله أنه يجعل الأخلاق أولاً وقبل كل شيء ميثاقاً مع الله:

(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ ينقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ، وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)[2].

(وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا..)[3].

هذا هو الميثاق.. "إذ قلتم سمعنا وأطعنا" وهو ميثاق لا إله إلا الله، التي تعني –فيما تعني– الالتزام بما جاء من عند الله.

إن الأخلاق لا بد لها من "مصدر إلزام"، فهي كلها ضوابط على شهوات النفوس.. وقد خلق الله هذه الشهوات لحكمة، وعمقها في نفوس الناس:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..)[4].

(١) الفرقان: ٦٣-٧٦.

(٢) الرعد: ١٩-٢٢.

(٣) المائدة: ٧.

(٤) آل عمران: ١٤.

إنها -من جهة- دوافع تدفع الإنسان إلى الحركة والنشاط والسعي في الأرض، فتتحقق عمارة الأرض، التي هي جزء من مهمة الخلافة، وجزء من مهمة الإنسان في الأرض:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[1].

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[2].

وهي -من جهة أخرى- محل الابتلاء الذي خلق الإنسان من أجله:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[3].

ومع ضرورتها للإنسان في حركته لتعمير الأرض، ولزومها للابتلاء الذي قدره الله للإنسان، فإن الله يعلم أن الانحراف معها بلا ضوابط عملية مدمرة لكيان الإنسان، تهبط به إلى مكانة أضل من الحيوان، وتبدد حياته سدى.. فلا بد لها من ضوابط.

والضوابط هي الأخلاق..

وقد زعمت الجاهلية المعاصرة -متأثرة بفرويد مرة، ودوركايم مرة، وماركس مرة[4]- أن الأخلاق أمر مفتعل، ليس في فطرة الإنسان، وإنما هي مفروضة عليه من الخارج، وهي أقرب أن تكون قيداً ثقيلاً من أن تكون أداة نافعة للإنسان، وأنها ذات معايير متقلبة لا تثبت على حال.. بل لا ينبغي لها الثبات!

والحقيقة أن الإنسان كائن أخلاقي بطبعه.. بحكم فطرته التي فطر عليها:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[5].

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) هود: ٦١.

(٣) الكهف: ٧.

(٤) راجع إن شئت كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

(٥) الشمس: ٧-١٠.

فالإنسان كائن مزدوج الطبيعة، له طريقان لا طريق واحد كالحيوان. وقد أُلْهِم التمييز بين الطريقين، كما أعطى القدرة على اختيار واحد منهما.. ومن ثم أصبحت لأعماله قيمة أخلاقية مصاحبة لها لا تنفك عنها، لأن كل تصرف للإنسان هو خيار بين طريقين، أحدهما طريق التقوى والآخر طريق الفجور..

إننا لا نقول عن الحيوان إنه كائن أخلاقي، لأن له طريقاً واحداً لا يملك أن يحيد عنه، هو طريق الغريزة، فحين يلبي دافع الغريزة لا نقول عن عمله إنه خيّر أو شرير، لأنه لا خيار له فيه. أما الإنسان -الذي منح القدرة على التمييز، والقدرة على الاختيار، فإننا نصف كل عمل من أعماله بأحد الوصفين لا محالة: إما خيّر وإما شرير.. وتلك هي القيمة الأخلاقية اللاصقة بأعماله، والتي لا تنفك عنها..

ليست القضية هي كون أعمال الإنسان ذات قيمة أخلاقية، أم ليس لها قيمة أخلاقية، كما تحاول الجاهلية المعاصرة أن تشكك فيها.. إنما القضية هي المعايير.. من الذي يحدد إن كان عمل بعينه خيّراً أو شرّاً؟! من الذي يقول: هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح. هذا حلال وهذا حرام؟

تلك هي القضية في حقيقتها.. وهي قضية منذ منشئها مرتبطة بالإله المعبود: أهو الله أم غير الله؟

فإذا كان الله هو المعبود، فالمعايير التي يجب العمل بها هي المعايير الربانية، أما إن كان المعبود غير الله -معه أو من دونه- فالمعايير تضعها الآلهة المعبودة من دون الله، سواء كانت هي "العقل الجمعي" كما يقول دركايم، أو الأوضاع المادية كما يقول ماركس! أو "المصلحة" كما يقول البراجماتيون.. وهي في جميع الحالات من صنع الشيطان في النهاية، فإن العبادة نوعان اثنان في الحقيقة، إما عبادة الله وإما عبادة الشيطان:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1].

ومن هنا تتصل الأخلاق بلا إله إلا الله..

---

(١) يس: ٦٠-٦١.

فالإله الذي لا إله غيره.. الخالق، الرازق، المهيمن، العزيز الجبار المتكبر.. هو الذي له الأمر، وهو الذي يحق له، بحكم أنه الخالق، أن يقول: حلال وحرام. حسن وقبيح. مباح وغير مباح..

كما أنه -بحكم أنه العليم الخبير- هو الذي يحدد ما هو خير وما هو شر، ومن ثم فهو الذي يحدد معايير الأخلاق، بالضبط كما يحدد تعالم الشريعة سواء بسواء، فالمصدر في الحالين واحد، والاعتبارات في الحالين واحدة.

فإذا نظرنا في المنهج التربوي الإسلامي، الذي يترجم تلك الأخلاق إلى واقع سلوكي، وجدنا أن المعايير الربانية التي يعلم الله أنها هي التي تنشئ "الإنسان الصالح" فرداً وجماعة وأمة، تنبثق في حياة المؤمن من "الميثاق" الذي يعقده المؤمن مع الله، حين يشهد أن لا إله إلا الله، والذي يشتمل على كلمتين رئيسيتين: "سمعنا وأطعنا".

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[١].

(وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)[٢].

سمعنا وأطعنا.. ذلك هو الميثاق.. وهو أوثق رباط!

ولقد بحثت الجاهلية المعاصرة -حين أزاحت الدين تدريجياً من حياتها- عن رباط تربط به قضية الأخلاق، فجعلته العقد الاجتماعي مرة، والطبيعة البشرية مرة، والمصلحة مرة..

وفي النهاية سقطت الروابط المصطنعة.. وتفككت الأخلاق!

* * *

إنه لا رباط إلا ذلك الرباط.. الميثاق مع الله. هذا هو الذي يحدد المعايير الصحيحة أولاً، ويوثّقها ثانياً بحيث تبقى متماسكة في وجه الضغوط التي تحلل الأخلاق، سواء كانت ضغوطاً داخلية من دفع الشهوات، أو خارجية من فعل الطواغيت التي تتأله في حياة الناس

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) المائدة: ٧.

بدلاً من الله.. طواغيت السياسة، أو طواغيت الاقتصاد، أو طواغيت الفكر، أو طواغيت الأعراف الفاسدة التي تملأ كل جاهلية..

والمنهج القرآني يشدد الوثاق بين الأخلاق وبين لا إله إلا الله..

انظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة لقمان:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)[1].

فالوصية هي وصية بالوالدين، لإحسان معاملتهما، والأم خاصة بما تحملت من وهن مُوهِن في الحمل والولادة والرضاعة والتربية.. ولكن كيف ينفذ الإنسان الوصية؟ كيف يشكر والديه على ما تحملا وما أعطيا.. بشكر الله أولاً!! أي بالرجوع إلى أصل الميثاق!

الميثاق ميثاق مع الله بالسمع والطاعة له، وتحته تندرج كل العلاقات التي تربطها الأخلاق.

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ..)[2].

وكل صلة أمر الله بها أن توصل داخلة في هذا الميثاق، بدءاً بالصلة بالله سبحانه وتعالى: صلة العبادة الخالصة البريئة من الشرك[3]، ثم الصلة بالوالدين:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً)[4].

ثم الصلة بأولى القربى، ومَنْ بعدهم..

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) الرعد: ٢٠-٢١.

(٣) انظر "المقتضى التعبدي" و"المقتضى التشريعي" وقد مرا من قبل.

(٤) الإسراء: ٢٣-٢٤.

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)(١).

ثم تتسع الدائرة الأخلاقية فتشمل كل الناس وكل العلاقات..

ليست الأخلاق في المقتضى الأخلاقي الإسلامي محدودة في نطاق معين..

فالسياسة لها أخلاق..

(وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ..)(٢).

والاقتصاد له أخلاق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)(٣).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) النساء: ٥٨.

(٣) البقرة: ٢٧٨-٢٨١.

وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[1].

وعلاقات الأسرة لها أخلاق.

وعلاقات الجنس لها أخلاق.

وعلاقات المجتمع لها أخلاق.

وعلاقات المسلم بغير المسلم لها أخلاق.

وعلاقات السلم والحرب لها أخلاق.

وهكذا تتسع دائرة الأخلاق؛ لتشمل البشر جميعاً، بل تشمل التصرفات جميعاً.. حتى الطعام والملبس والمسكن، فلكل منها "آداب".. بل تمتد الأخلاق فتشمل غير البشر كذلك، فيقول -صلى الله عليه وسلم-: "ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام "في كل كبد رطبة أجر"[3] ويقول عمر -رضي الله عنه-: لو عثرت بغلة بصنعاء (أو قال بالعراق) لكنت مسئولاً عنها لم لم أسوّ لها الطريق..

* * *

ليس القصد من هذه العجالة تفصيل الحديث في أخلاقيات لا إله إلا الله، فموضع ذلك الدراسات المتخصصة، وكتاب الله وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- نبع غزير يفيض بالتوجيهات الخلقية في كل اتجاه..

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الشيخان.

إنما الهدف المقصود من هذه العجالة بيان ارتباط هذه الأخلاقيات بلا إله إلا الله، بحيث يصح أن نطلق عليها "أخلاقيات لا إله إلا الله" وبيان مدى شمولها، ورسوخها في بنية هذا الدين، حتى إن أول سورة أنزلت، وآخر آية أنزلت كانت توجيهاً عقدياً وأخلاقياً في ذات الوقت(1).

لذلك كان من العجب أن تخلت هذه الأمة عن أخلاقياتها، فأخرجتها أولاً من مقتضيات لا إله إلا الله، ثم أخرجتها من دائرة السلوك العملي، حتى أصبحت بالنسبة للجاهلية المعاصرة ذاتها معرة بين أمم الأرض(2)..

إن الأرض اليوم كلها -إلا ما رحم ربك- تعيش بلا أخلاق:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)(3).

ولكن الجاهلية المعاصرة تتظاهر -على الأقل- بأن لها أخلاقيات عالية، تحرص عليها، وتربي عليها أبناءها..

ونحن لا تخدعنا أخلاقيات هذه الجاهلية -مهما بدا من جمالها الظاهري- لأننا نعرف أنها في حقيقتها أخلاق نفعية مصلحية (براجماتية) هدفها تحقيق المصالح الأرضية، و"تشحيم" عجلة الحياة اليومية؛ لتجري أسرع ما تستطيع أن تجري بأقل احتكاك ممكن، وسندها الواقعي أن كل إنسان "أبيض" في المجتمع الغربي يمد إحدى يديه بالمصافحة، والأخرى وراء ظهره تحمل سكيناً مستعدة لرد أي اعتداء، ويعلم أن الإنسان الأبيض الآخر يحمل ذات السكين وراء ظهره، فمن الخير إذن، أي من المصلحة أن يكون كل منهما مهذباً مع الآخر إلى أقصى حد، لتقليل الاحتكاك كما أسلفنا، وتشحيم عجلة المجتمع.. ولكنها ليست أخلاقاً ربانية، لأنه لا اتصال لها بالله، ولا بدين الله.. ومن أجل ذلك لا يجد الرحل الأبيض حرجاً في أن يعتدي على الرجل الملون، الذي يعلم أنه لا يحمل السكين التي يحملها الرجل الأبيض، ولا يجد القاضي الأبيض حرجاً في تبرئة رجل الشرطة الذي يكسّر عظام

---

(1) آخر ما نزل -على الأقوال الراجحة- آية سورة البقرة: (وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ......) [البقرة: ٢٨١].

(2) سنتكلم في فصل قادم عن الانحرافات التي وقعت في مفهوم لا إله إلا الله.

(3) الروم: ٤١.

الرجل الملون، ولا يجد العالم الأبيض الذي يسمي نفسه "العالم الحر" حرجاً في أن يذبح الصربيون المسلمين من أهل البوسنة والهرسك، ويرتكبوا أبشع المجازر، وأن يحرّق البوذيين والهنادكة الوثنيون المسلمين في بورما والهند.. بينما كانت أخلاق المسلمين –حين كانوا مسلمين حقاً– أخلاقاً ربانية، لا تتصل بالمصلحة القريبة، ولا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة.. إنما هي ذلك الميثاق مع الله..

ومن أجل ذلك لم تكن تتغير أخلاق المسلمين حين ينتقلون من بلد إلى بلد، ولا من مناخ إلى مناخ، لأن الله الذي يعبدونه في بلادهم هو الله الذي يعبدونه في البلد الآخر، وميثاقه هو ميثاقه، والتزاماته هي التزاماته..

لما فتح أبو عبيدة بن الجراح الشام، وأخذ الجزية من أهلها اشترطوا عليه أن يحميهم من الروم (الكاثوليك)؛ لأنهم كانوا يسيئون معاملتهم بسبب اختلاف المذهب وإن كانوا كلهم نصارى. فقبل أبو عبيدة الشرط وتعهد بحمايتهم من الروم مقابل أخذ الجزية. ثم سمع أن هرقل يجهز جيشاً جراراً لاسترداد الشام من المسلمين. فرد الجزية إلى أهل الشام وقال لهم: لقد اشترطتم علينا أن نحميكم، وقد سمعتم ما يجهز لنا، وإنا لا نقدر على ذلك (أي على حمايتكم) ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم! ونصره الله.. فعاد أهل الشام يؤدون الجزية بنفوس راضية، وقالوا للمسلمين: أنتم –ولستم على ديننا– أرأف بنا من أهل ديننا.. ثم دخلت غالبيتهم في الإسلام..

وانتشر الإسلام فيما وراء الهند (إلى أندونيسيا) من خلال أخلاقيات التجار المسلمين الذين تعاملوا معهم بنظافة الإسلام وسماحة الإسلام، فأحبوا الدين الذي يخرج هذه النماذج البيضاء الناصعة البياض –لا بلون الجلد وإنما بما في القلوب– فدخلوا في الإسلام..

هكذا كانت الأمة وقت تمسكها الحقيقي بمقتضيات لا إله إلا الله، وهكذا كانت –بأخلاقياتها– تنشر في الأرض حضارة تنير الطريق للبشرية كلها، ومنها أخذت أوربا حوافز نهضتها حين أرادت النهوض[١]..

ولكنها اليوم –إلا ما رحم ربك– صِفْرٌ من أخلاقيات لا إله إلا الله، وتبدو الجاهلية إلى جانبها أمة عالية الأخلاق!

(١) سنتكلم في فقرة تالية عن "المقتضى الحضاري" للا إله إلا الله.

إن أخلاقيات أوربا –من حيث الشكل– هي أخلاقيات الإسلام في الحقيقة..

الصدق.. الأمانة.. المحافظة على الوعد.. الإخلاص في العمل.. الجد والنشاط والمثابرة.. احترام حقوق الغير.. النظافة.. والفارق أنها في الإسلام أخلاق يراعيها الناس لله، وهي في الجاهلية المعاصرة محصورة في دائرة التعامل الاجتماعي. أما السياسة فلا أخلاق لها، ويباح فيها الكذب والخداع والغش. والاقتصاد لا أخلاق له، فيباح فيه أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، والخداع بالإعلان، وإغراء الناس بكل الوسائل؛ لتَنْفَقَ البضائع المكدسة سواء كان فيها فائدة للناس أو ضرر، ولتنتفش جيوب الرأسماليون وبطونهم. وعلاقات الجنس فوضى لا مثيل لها في التاريخ..

ولكن أين الأمة الإسلامية اليوم من الأخلاق؟!

إننا لا ندعو إلى أخلاقيات كأخلاقيات أوربا النفعية الجزئية.. ولكنا نتساءل: أين الأمة الإسلامية من الأخلاق إطلاقاً: نفعية أو غير نفعية.. مظهرية أو حقيقية؟!

أنقول ردة جاهلية؟!

حتى الجاهلية العربية –ودع عنك الجاهلية المعاصرة– كانت لها "أخلاقيات"! أين منها اليوم مجتمعاتنا وتعاملاتنا!

إنها نكسة بئيسة انتكستها هذه الأمة، حتى بدت الجاهليات إلى جانبها ذوات أخلاق!

ولا علاج لها إلا أن تعود فتعرف أولاً أن الأخلاق هي جزء من مقتضيات لا إله إلا الله، ثم تربي أبناءها على أخلاقيات لا إله إلا الله، فإن المعرفة وحدها –إن بقيت معلومات في داخل الذهن– لا تقدم ولا تؤخر في واقع الحياة[1]!

خامساً: المقتضى الفكري

للمسلم تصور خاص عن الكون والحياة والإنسان، وصلتها جميعاً بالله الخالق البارئ المصور، مستمد من كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، يختلف في كلياته–وقد

(١) سنتكلم في فصل قادم عن واجب الصحوة الإسلامية تجاه لا إله إلا الله ومقتضياتها.

يختلف في بعض جزئياته– عن تصور الجاهلية، وينشأ عن هذا الاختلاف اختلاف في طريقة التفكير، وفي منهج الحياة، وفي النظرة إلى "القيم".. وفي كثير من الأمور[١].

لذلك فإن الدعوة إلى اتخاذ طريقة الغرب في التفكير والتصور من أجل مساكنة أهل القرية الظالمة، هي في الحقيقة دعوة إلى التخلي عن مقوماتنا الذاتية، والانخراط في "القطيع البشري" تحقيقاً لقول الشاعر القديم وإن يكن على نطاق مختلف:

وهل أنا إلا من غُزية إن غوت   غويت، وإن ترشد غزية أرشد!!

ويصبح "الرأي العام العالمي" أو "ثورة التكنولوجيا" هما الرب الجديد في حياتنا، بدلا من قبيلة الشاعر العربي القديم[٢]!

* * *

إن "المعلومات" الجزئية الوصفية عن تركيب الكون والحياة والإنسان قد لا تختلف بالنسبة للمؤمن والكافر، متى أصبحت حقائق علمية نهائية[٣]، لأن مثل هذه الحقائق لا دخل فيها للرؤية الذاتية ولا "للموقف" الذاتي.. ودور "العلم" فيها هو رصدها وتسجيلها، ومحاولة استخلاص "قانون عام" لها كلما أمكن..

أما حين يتصدى "العلم" لتفسيرها، فهنا يختلف الوضع.. ويختلف كثيراً بين المؤمن والكافر..

ونضرب مثالاً للتوضيح..

من المتفق عليه علمياً أن جميع المواد تتقلص بالبرودة فتزداد كثافتها ويثقل وزنها ما عدا الماء، فإنه حين يصل إلى درجة التجمد يزداد حجمه وتقل كثافته ويطفو إلى أعلى..

---

(١) اقرأ بالتفصيل في هذا الموضوع كتاب "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" بجزئيه: الخصائص والمقومات لسيد قطب.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) يجب التفريق جيداً بين الحقائق العلمية وبين النظريات.

والعلم يسجل هذه الظاهرة، فلا يختلف في تسجيلها ووصفها أحد من البشر، مؤمناً كان أو كافراً، لأنها حقيقة علمية موضوعية لا شأن لها بموقف الإنسان.. بل إنها موجودة على هذا النحو من قبل أن يُخْلَقَ الإنسانُ ذاته!

ولكن بينما ينظر "العالم" الجاهلي إلى هذه الظاهرة على أنها إحدى الظواهر الموجودة في "الطبيعة" ولا يزيد على ردها إلى تلك "الطبيعة" التي لا يعلم أحد على وجه التحديد ما هي، والتي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق(١) ثم قال عنها بعد ذلك إنها تخبط خبط عشواء..!(٢) فإن العالم المسلم يرى فيها تدبيراً ربانياً لحفظ ما خلق الله من الكائنات الحية في مياه البحار (والأنهار والمحيطات بطبيعة الحال)؛ لأنه لو كان الماء كبقية المواد يتقلص بالبرودة ويثقل وزنه لهبط الجمد إلى القاع، وقتل في طريقه كل ما يصادفه من الكائنات الحية، أما حين جعله الله يتمدد في حالة التجمد ويطفو على السطح، فهو يكوّن سقفاً حافظاً للكائنات الحية طيلة فترة الشتاء!

وما أبعد فارق الرؤية بين النظرتين.. وما أبعد التأثير في القلوب!

* * *

الكون والحياة والإنسان في تصور المسلم كائنات من خلق الله.. أوجدها الله بمشيئته، ودبر شأنها بمشيئته، وأعطاها هيئتها، و"قوانينها" بمشيئته:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٣).

ما أبعد هذه الرؤية –من جميع الوجوه– عن قولة من يقولون إن الكون خلق بلا خالق! أو إنه وجد مصادفة! أو إنه أزلي أبدي موجود دائماً فلا يحتاج أن "يُخْلَق"!

---

(١) راجع نظرية دارون في أي مرجع من مراجعه، واقرأ على سبيل المثال كتابه "التطور".

(٢) راجع نظرية دارون في أي مرجع من مراجعه، واقرأ على سبيل المثال كتابه "التطور".

(٣) فصلت: ٩-١٢.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)[1].

حين يكون الكون قد وجد مصادفة، والحياة وجدت فوقه مصادفة، والإنسان ظهر على سطح الأرض مصادفة.. فما الذي يربط ذلك الإنسان بأي شيء في الوجود؟ وما الذي يربطه -بالذات- بأي نوع من أنواع "القيم"؟ وكيف يكون لحياته هدف وهو قد وجد في الأصل بلا قصد ولا هدف؟! وكيف يكون له في النهاية "أخلاق"؟ وما معنى الأخلاق بالنسبة لكائن لا هدف له؟!

أرأيت كم تختلف النظرة، وكم تختلف نتائج النظرة بين من يؤمن بأن الله هو الخالق البارئ المصور، وبين من يؤمن بأن "الطبيعة" خلقت كل شيء، وأنها تخبط خبط عشواء؟!

إنه فرق هائل يشمل كل شيء في منهج الحياة..

حين تنقطع صلة الإنسان بالخالق الذي خلقه وخلق الكون والحياة، وتنطمس بصيرته عن الهدف من خلقه فما الفرق بينه وبين السائمة، إلا أنه أضل منها:

(أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[2].

سيجد نفسه قد وجد على الأرض، وآخرون من نوعه معه، وفي نفسه رغبة في المتاع، وفي نفوس الآخرين كذلك، فيتصارعون أيهم يفوز بقسط من المتاع أكثر.. فيصبحون كالأنعام. ولكن الأنعام تهديها غريزتها وتحميها من الدمار. أما الإنسان حين يتخلى عن قيمه العليا ويعيش على مستوى الغريزة، فإنها تضلله ولا تحميه، لأنها تفقد "الضابط" الذي يضبط الانطلاق.

* * *

في حس المؤمن حقيقة أخرى عن الكون والحياة والإنسان، إلى جانب أنها كلها من خلق الله..

---

(١) الطور: ٣٥-٣٦.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

إنها كلها –ما عدا فريقاً من البشر– عابدة لله، مسبحة له..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ...)[1].

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[2].

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[3].

(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)[4].

وفرق في الحس بين النظر إلى الكون على أنه مجرد أجرام سماوية، وإلى الكائنات الحية على أنها مجرد أنواع من الحياة، وبين الشعور بأن بينها رباطاً يربطها جميعاً هو التوجه إلى الله وتسبيحه..

إحدى النظرتين تحصر الإنسان في محيط ما تدركه الحواس، والأخرى تفسح مجال "الرؤية" أمامه فتشمل ما يرى وما لا يرى، وما تدركه الحواس وما لا تدركه.. فتتسع آفاقه، وتتسع اهتماماته، وينعكس ذلك على علاقات أفراد النوع البشري ذاته، فلا تنحصر في "الماديات" إنما تتسع، لتشمل كذلك "المعنويات"..

* * *

وأمر ثالث.. تعرض له العلم الحديث، ولكنه لم يزل قليل التأثير في القلوب التي صلّدتها النظرة المادية الحسية التي تبنتها الجاهلية المعاصرة، فأفسدت كل تصوراتها..

إن النظام الدقيق الذي يربط الكون ليس مجرد نظام "ميكانيكي" كما كان "العلم" ينظر إليه..

---

(١) الحج: ١٨.

(٢) الإسراء: ٤٤.

(٣) النور: ٤١.

(٤) الرعد: ١٥.

إن وراءه تدبيراً..

وإن هذا التدبير ذو صلة بالإنسان بالذات..

فحركة الأرض، سواء دورانها حول نفسها أو دورتها أمام الشمس، والمسافة بينها وبين الشمس، والمسافة بينها وبين القمر، وتركيب الغلاف الجوي المحيط بها، وتوزيع المياه على سطح اليابسة، ودورة الكربون في جوها، ودور النبات في إفراز الأكسجين في ضوء النهار.. الخ.. الخ.. كلها "محسوبة" بمقادير دقيقة غاية في الدقة، لتلائم حياة الإنسان!

ولو اختلت أي نسبة منها بالزيادة، أو بالنقص كما ينذر اتساع فتحة الأوزون لحدثت من جراء ذلك نتائج مدمرة بالنسبة لحياة الإنسان على الأرض!

ما أبعد الفارق بين الإحساس بفضل الله وتدبيره في تسخير نظام كوني بأكمله من أجل تيسير حياة الإنسان على الأرض، وبين الظن بأن كل شيء في عمل "الطبيعة" يجري خبط عشواء!

(اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[١].

وعلى الرغم من أن العلم ذاته هو الذي دل على هذا التناسق الرائع بين النظام الكوني ومتطلبات حياة الإنسان، فما زال على قلوب أقفالها:

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ)[٢].

* * *

العلم هو العلم.. ولكن هناك فرقاً في طريقة تقديمه..

ذلك فيما يسمى "العلوم البحتة"..

---

(١) الجاثية: ١٢-١٣.

(٢) يونس: ١٠١.

وحتى هذه "العلوم البحتة" فالنظريات فيها أكثر من الحقائق العلمية.. والعالم المسلم يرفض ابتداء كل نظرية تخرج مشيئة الله من أمر الخلق، وتخرج تدبيره وهيمنته من تفسير الظواهر العلمية.

ومن ثم فليس كل ما يقال باسم "العلم" مقبولاً عند المسلم، ولو طارت به الآفاق، وطنطن به المطنطنون كنظرية دارون التي لم تزد في الحقيقة على أن تكون فرضاً علمياً، ولكنها راجت في فترة من الفترات حتى ملأت أرجاء الأرض، واعتبر من يرفضها متأخراً جاهلاً.. حتى ظهرت اليوم "نظريات علمية" جديدة تكذب فكرتها الأساسية وتعطي تفسيرات جديدة لظهور "الإنسان"[١]..

أما بالنسبة لما يسمى "العلوم الإنسانية"[٢] فالشقة أوسع بكثير..

إنها كلها علوم تعتمد على نظرة الإنسان إلى نفسه، ورأيه في مقومات حياته..

وما يسمى "العلوم الإنسانية" حالياً في الغرب متأثر كله بالنظرة الداروينية الحيوانية إلى الإنسان، سواء منه علوم التربية وعلم النفس والتاريخ والأدب والاقتصاد والجغرافيا البشرية..

والمشكلة في تلك العلوم مزدوجة.. فهي ليست فقط ذات قاعدة داروينية في نظرتها إلى الإنسان، ولكن أصحابها يزعمون إلى جانب ذلك أنها أصبحت -مع تقدم البحث العلمي- علوماً بحتة، يجب التسليم بنتائجها كما يحدث في العلوم البحتة سواء بسواء! وتشتد هذه الصيحة بصفة خاصة بالنسبة لعلم الاقتصاد، والأبحاث النفسية والتربوية.. وإن كانت أخف من ذلك بالنسبة لبقية العلوم..

والمسلم على أي حال -بمقتضى المنهج الفكري الذي يستمده من الكتاب والسنة- يرفض كلا الاعتبارين: يرفض النظرة الداروينية الحيوانية إلى الإنسان، ويرفض اعتبار ما تنتجه

(١) راجع كتاب "ما أصل الإنسان" تأليف موريس بوكاي ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض ١٤٠٦هـ.

(٢) لا يجوز للمسلمين ابتداء أن يستخدموا اصطلاح "العلوم الإنسانية" على الطريقة الغربية، فليس المقصود بها في المصطلح الأوربي "العلوم المتعلقة بالإنسان" إنما المقصود هو "العلوم التي يؤخذ العلم فيها من الإنسان وليس من الله!".

الأبحاث الغربية في الاقتصاد وعلم النفس والتربية والتاريخ.. الخ علوماً بحتة، نتائجها نهائية لا تحتمل الجدل!

خذ مثالاً بسيطاً من علم الاقتصاد..

يبدأ الدرس الأول في علم الاقتصاد الغربي بقولة منكرة: أن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة!!

سبحان الله! الله يقول عن الأرض: (وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا..)[1] وهم يقولون إن المشكلة هي مشكلة الندرة!

وكذبوا.. إن المشكلة هي مشكلة الإنسان! الإنسان الجاهلي الذي يريد أن يستمتع بغير حد، والذي يرفض التشريع الرباني، ويستعبد القوي منه الضعيف، فتبدو الأقوات أقل من حاجة البشر.. فيتقاتلون.. ويعيش كثير من الناس تحت المستوى، لأن فئة قليلة تعيش على مستوى الترف الفاجر، وتستهلك جهد المستضعفين وأقواتهم، سواء في الدولة الواحدة، أو بين الدول المختلفة بعضها وبعض..

والمشكلة الاقتصادية الحقيقية ليست ندرة الأقوات.. وإنما هي ضرورة تهذيب الإنسان ليتعامل مع رزق الله بما يرضى الله.. ولن يصنع ذلك حتى يؤمن بالله واليوم الآخر، ويرتب أمور حياته على أساس هذا الإيمان!

وخذ مثالاً آخر ما يتصايحون به من أخطار الانفجار السكاني سنة ٢٠٠٠، أو في القرن الحادي والعشرين!

والعلم.. العلم البحت ذاته.. يقول: إن ما استغل من خيرات البحار حتى اليوم لا يزيد على عشر ما يمكن أن يستخرج منها، وإن الأرض بيابسها ومائها تتسع لأضعاف أعداد البشر الذين يسكنونها اليوم، حين يحسنون استغلالها.. إنما هي صيحات خبيثة يطلقها الرجل الأبيض، ليطالب الرجل الملون بتحديد نسله المتزايد، لكي لا يزاحمه في متعته الفاجرة التي اختلسها في غفلة من الرجل الملون، والتي يخشى اليوم ضياعها حين يثور الرجل الملون

---

(١) فصلت: ١٠.

ذو النسل المتزايد على من سلب أقواته، ويطالبه برفع يده عن مقدراته.. وتأخذ الصيحة الخبيثة شكل "العلم الموضوعي"، وتدرس في الجامعات!

وخذ مثالاً من علم النفس..

يدعي علماء النفس اليوم أنهم أصبحوا "تجريبيين".. ومن ثم فالنتائج التي يصلون إليها نتائج "علمية" "موضوعية" تؤخذ بالتسليم كما تؤخذ العلوم البحتة..

ويضع المفكر المسلم أمام ذلك ثلاثة اعتراضات "علمية"..

الاعتراض الأول: أي عناصر الكيان النفسي هي التي يمكن إدخالها المعمل، وإجراء التجارب عليها؟ أهي الأمور الحسية، أو القريبة من الحسية، أم هي الأمور المعنوية، وعالم القيم، وهي أثمن ما في الإنسان؟

خذ إنساناً كان ملحداً ثم آمن.. ما الذي يستطيع المعمل التجريبي أن يجريه عليه من التجارب؛ ليستخلص حقيقة الإيمان، وكيف يتم في داخل النفس، وكيف يؤثر في المشاعر والأفكار والتصرفات؟!

الاعتراض الثاني: إنه من المسلم به في التجربة "العلمية" أن تكون العينة المفحوصة ممثلة للنوع، حتى يمكن تعميم النتائج المستخلصة منها على النوع كله. فهل يتحقق هذا في تجارب علم النفس.

ودع عنك الآن ما يحدث من عشوائية في اختيار العينة، مقصودة لأهداف "علمية"! فمن أين نختار عيناتنا؟ أليس من هذا الجيل الذي يعيش اليوم على سطح الأرض؟ فهل هذا الجيل -في اهتماماته وقيمه وتوجهاته وأفكاره ومشاعره وأخلاقياته- يمثل النوع البشري كله خلال الأجيال كلها، حتى تكون النتائج المستخلصة من التجارب المجراة عليه صالحة لإطلاقها على النوع البشري كله، وتفسير الكيان النفسي "للإنسان" على إساسها؟!

وما قولهم في جيل الصحابة -مثلاً- رضوان الله عليهم؟ أليسوا واقعاً بشرياً يمكن أن تستخلص منه "معلومات" عن النفس الإنسانية في حالة رفعتها وصفائها؟!

والاعتراض الثالث: أنه إذا كان علم النفس قد أصبح علماً بحتاً كما يزعمون، فلماذا تختلف مدارس علم النفس المختلفة في تفسير التجربة المعملية الواحدة.. وفي نفس الجيل؟!

كلا! ما أبعد علم النفس عن أن يكون علماً بحتاً، وما أبعد النتائج المستخلصة من تجاربه الحالية عن أن تعطى تفسيراً شاملاً للكيان النفسي في شموله وترابطه وتكامله..

وخذ علم التاريخ..

إن الوقائع التاريخية قد تتفق ما بين مؤرخ ومؤرخ إذا تحدث المصادر المتاحة لتحقيق الواقعة والتقت وجهات النظر في درجات وثاقتها..

ولكن المهم في دراسة التاريخ ليس تحرير الوقائع فحسب، إنما الأهم من ذلك تفسيرها، ثم إصدار الحكم عليها. وهنا تختلف المناهج فيما بينها بحسب نظرتها إلى "الإنسان".. ما هو؟ ما تكوينه؟ ما حدود طاقاته؟ ما دوره في الأرض؟ ما العوامل المؤثرة فيه؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه؟ ما السنن الجارية في حياته؟

وهنا يبرز المؤرخ المسلم بمنهجه الخاص، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله، ويكون له تفسيره الخاص للأحداث، وتقويمه الخاص للإنجاز البشري حسب معاييره الخاصة[١].. وليس أقل الخلاف بينه وبين غيره من المؤرخين أن يسمي الأشياء بأسمائها في المصطلح الإسلامي، فما قال الله عنه إنه جاهليات هو في عرف التفسير الإسلامي للتاريخ جاهليات، وإن سميت "حضارات" فهي "حضارات جاهلية" على أي حال، ومن ثم يقول المؤرخ المسلم: الجاهلية الفرعونية، والجاهلية الرومانية، والجاهلية الإغريقية، والجاهلية الفارسية، والجاهلية الهندوكية، والجاهلية البوذية.. الخ ولا يكون الإنجاز المادي وحده، ولا الحربي وحده ولا العلمي وحده هو المعيار الأول لتقويم إنجازات الإنسان في كل تلك "الحضارات".. إنما يكون هناك معيار مقدم على هؤلاء جميعاً: هل أدى الإنسان غاية وجوده التي خلق من أجلها:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٢].

وخذ الأدب..

إن للمسلم منهجاً خاصاً في التعبير، وفي تقويم الإنتاج الأدبي والفني، يستمد عناصره من التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، ويلتزم بالقيم الإسلامية.. ويتميز عن غيره

---

(١) اقرأ إن شئت "حول التفسير الإسلامي للتاريخ.

(٢) الذاريات: ٥٦.

من مناهج التعبير ومناهج التقويم التي لا تلتزم بشيء على الإطلاق، والتي تقول الفن للفن، والحياة للحياة، وتسفّ -تحت هذه الشعارات- ما شاء لها الإسفاف[1]..

* * *

لا تتسع هذه العجالة للحديث المفصل.. إنما هي إشارات..

والقصد من هذه الإشارات هو التركيز على نقطة بعينها.. هي اتصال هذه الأمور كلها بلا إله إلا الله..

إن هناك مقتضى فكرياً للا إله إلا الله، يجعل المسلم يفكر بمنهج معين، لا يختلط بمناهج التفكير الجاهلي، وإن التقت بعض جزئيات تفكيره مع أفكار غيره، فيما يتعلق بالحقائق العلمية والتجارب المعملية، ولكن المسلم يتناولها بطريقته الخاصة، ويعطيها تفسيرها المستمد من مقررات الكتاب والسنة..

أما العلوم التي تتصل "بالإنسان".. وتعتمد أساساً على التصور الذي نتصوره عنه، فالمسلم ينفرد فيها بتصوره الخاص، المستمد من الحقائق الكبرى المذكورة عن الإنسان في كتاب الله: أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. وأنه نشأ إنساناً من أول لحظة، ولم يكن قط حيواناً ثم تطور. وأنه وهب المواهب التي تصلح للمهمة التي أنشأه الله من أجلها، وأهمها الوعي والإرادة والحرية، وأن له طريقين لا طريقاً واحداً، وله القدرة على التمييز بين الطريقين، والقدرة على اختيار أحد الطريقين.. وهي هي المزايا التي تفرد بها الإنسان، والتي تميزه عن عالم الحيوان:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[2].

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[3].

(١) سنتحدث في فقرة تالية عن "المقتضى التعبيري" للا إله إلا الله.

(٢) ص: ٧١-٧٢.

(٣) البقرة: ٣٠.

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[1].

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[2].

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا)[3].

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[4].

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)[5].

* * *

بهذا المنهج الفكري يتكون لدينا المفكر المسلم والعالم المسلم والأديب المسلم والباحث المسلم.. وقد كان هؤلاء جميعاً موجودين في الأمة الإسلامية بكثافة ملحوظة حين كانت هذه الأمة مستمسكة بدينها.. فلما غفلت عن دينها قلت كثافتهم حتى كادت تذهب.. وفي فترة الغزو الفكري والانسحاق تحت الضغط عجّت الساحة بمسخ مشوه يقول بضرورة "الانفتاح" على الحضارة العالمية (يقصدون الغربية!) وضرورة التبادل الثقافي (يقصدون الأخذ من الغرب، فليس عندهم شيء ذاتي يتبادلونه مع أحد!) وضرورة مساكنة أصحاب القرية الواحدة التي صنعتها "ثورة التكنولوجيا" (يقصدون تقليد أوربا في كل شيء!).

إن الانفتاح مطلوب، والتبادل الثقافي مطلوب، والمعايشة والمساكنة مطلوبة، ولكن بالعزة التي ينشئها الإيمان في نفس المؤمن، والتميز الذي يصنعه المنهج الإسلامي في فكر المؤمن.

---

(١) هود: ٦١.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) البقرة: ٣١.

(٤) الشمس: ٧-١٠.

(٥) الإنسان: ٢.

إن العالِم الملحد، والعلم الإلحادي، موجود يملأ ساحة الأرض. والذي تحتاج إليه البشرية لتنجو من الدمار ليس مزيداً من ذلك العلم ولا أولئك العلماء. إنما تحتاج البشرية إلى العلم الإيماني، وإلى العالم المؤمن.. وهذا هو الذي ينشئه المنهج الإسلامي، والذي سميناه هنا "المقتضى الفكري" للا إله إلا الله..

لقد كانت الأمة الإسلامية -يوم كانت حقاً- أمة عالمة، بل كانت هي الأمة العالمة في الأرض، ومنها تعلمت أوربا كثيراً من العلوم، وتعلمت المنهج التجريبي في البحث العلمي. ولكنها كانت دائماً أمة تؤمن بالغيب.. وهذه مزيتها: الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة في آن واحد، بلا تناقض ولا صدام..

سادساً: المقتضى الحضاري

نتحدث كثيراً عن الحضارة التي أنشأتها الأمة الإسلامية في وقت ازدهارها، سواء في المشرق أو المغرب، وخاصة في الأندلس، ونعدد مزاياها، وما تفردت به عن غيرها، وما تلاقت فيه مع غيرها، وما برع المسلمون في أدائه، وما أثروا به في نهضة أوربا..

نتحدث عن ذلك كله على أنه من نتاج الإسلام، ونحن صادقون في ذلك، فإن الأمة التي حملت الإسلام لم تكن لها قبل إسلامها مشاركة تذكر في شئون الحضارة، ثم صارت بعد إسلامها مصدراً من مصادر الحضارة في الأرض..

ولكن الذي أريد أن أبرزه هنا ليس هذا المعنى الذي أشرت إليه في أكثر من كتاب.. إنما أريد أن أقول إن ما حدث من الأمة المسلمة من إنتاج حضاري لم يكن أمراً تطوعياً تقوم به الأمة إن شاءت وتتركه إن شاءت، إنما كان مقتضى من مقتضيات لا إله إلا الله، تلتزم الأمة الإسلامية بأدائه، وتلام إذا لم تقم به، لأنها -إن لم تقم به- تكون مقصرة في أداء أحد التكاليف التي كلفها الله بها وهو ينزل عليها مقتضيات لا إله إلا الله..

ولقد أشار الغزالي إلى هذا المعنى حين أشار إلى فروض الكفاية، التي تأثم الأمة إذا لم يقم بها أحد من أبنائها، ويسقط عنها الإثم إن قام بها من يحسن القيام بها..

الإنتاج الحضاري هو -على أقل تقدير- من فروض الكفاية المفروضة على الأمة، وإن كنت أرى أن بعض جزئياته هي من فروض العين، التي يلزم أن يقوم بها كل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله.

ولننظر من أين أتى التكليف، وكيف صار جزءاً من مقتضيات لا إله إلا الله.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[1].

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[2].

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)[3].

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)[4].

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[5].

كلها تكاليف –صريحة أو ضمنية– موجهة إلى "الإنسان"، الذي جعله الله خليفة في الأرض.. وكلها من مهام الخلافة التي خلق الإنسان من أجلها.. وأبرزها عمارة الأرض..

فإذا كان هذا تكليفاً للإنسان عامة، الذي جعله الله خليفة في الأرض، وجزءاً من مهامه في الأرض، فمن أولى الناس أن يقوم بالتكليف؟ إنه ولا شك "الخليفة الراشد"، المؤمن بالله، الملتزم بما جاء من عند الله..

ولكن المهم في التزام الإنسان المؤمن، ليس فقط أن يقوم بعمارة الأرض، فهذا يقوم به الكافر كذلك، ولكن أن يقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني.. وهذا –بالذات– هو المقتضى الحضاري للا إله إلا الله..

* * *

إن الإنسان مدفوع بفطرته إلى الإنتاج.. الإنتاج الحضاري بالذات..

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) هود: ٦١.

(٣) الجاثية: ١٣.

(٤) الإسراء: ١٢.

(٥) الملك: ١٥.

إنه مفطور على الرغبة في "تصنيع" المادة الخامة التي يجدها من حوله في الأرض، وتلك إحدى مزاياه التي تفرد بها عن الحيوان الذي يتناول الخامات على حالها، وإن استخدمها في عمل مسكن، أو عش كما تصنع الطيور فهو يجمّعها ويرتبها على نسق معين، ولكنه لا يغير طبيعتها الخامة كما يصنع بها الإنسان، إذ يحولها بالصهر والسحب والطرق والتفاعلات الكيميائية من حالها الأصلي إلى حالة جديدة.. وقد كان هذا وحده يكفي للرد على دارون في تفسير الحيواني للإنسان.. فهذا الأمر لا يحدث نتيجة "التطور" إنما هو في فطرة كيان "الإنسان".

ثم إنه ليس مفطوراً على الرغبة في تصنيع الخامات فحسب، بل مفطور كذلك على الرغبة في "التحسين" المستمر لمصنوعاته، والوصول بها إلى درجة الكمال أو درجة الجمال..

والتصنيع والتحسين والتجميل كلها من مزايا الإنسان التي تفرد بها عن الحيوان.. وكلها من مقومات "الحضارة"[1].

ولكن المعيار الحقيقي للحضارة ليس هذا، أو ليس هذا وحده على أقل تقدير..

إن البراعة في التصنيع والتحسين والتجميل جهد يحسب للإنسان، ويتفاضل فيه فرد عن فرد، وجماعة عن جماعة، وأمة عن أمة.. ولكنه وحده لا يكفي للحكم على الإنجاز..

نقول للتقريب: في مناهج التعليم مادة تسمى "مادة رسوب" بمعنى أن من رسب فيها لا يعتبر ناجحاً ولو حصل على الدرجة النهائية في جميع المواد الأخرى (وهي في مناهجنا مادة اللغة العربية في الغالب) ومواد أخرى لا بد من النجاح في كل منها، ولكن الرسوب فيها يعتبر رسوباً جزئياً، يمكن أن يعوضه الطالب بإعادة الاختبار في تلك المادة وحدها، ولا يعيد المواد كلها كمن رسب في "مادة الرسوب"..

و"مادة الرسوب" في الإنجاز الحضاري هي الرد على هذا السؤال: هل كان كل ما قام به الإنسان من تصنيع وتحسين وتجميل متمشياً مع غاية الوجود الإنساني، محققاً لها، أم كان معاكساً لهذه الغاية، معوقاً عن تحقيقها؟

هذا هو المعيار الحق، الذي تقوّم به الحضارات[1]..

---

(١) راجع إن شئت كتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

فأين مكانه في المقتضى الحضاري للا إله إلا الله؟

آية واحدة في كتاب الله تكفينا للدلالة، وإن كانت الآيات الدالة كثيرة..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٢].

إن ذكر النشور هنا -في معرض المشي في مناكب الأرض والأكل من رزق الله- بما يتصل بالنشور من حساب وجزاء، هو للتذكير "بالمنهج" الذي يلتزم به الإنسان المسلم وهو يمشي في مناكب الأرض ويسعى في طلب الرزق.. هو المنهج الرباني.. هو الالتزام بالحلال والحرام، والمباح وغير المباح.. أي الالتزام بما جاء من عند الله.. وهو مقتضى لا إله إلا الله:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[٣].

ذكر الآخرة والإنسان يسعى في مناكب الأرض، يصنّع ويحسّن ويجمّل، والالتزام بما ينجي الإنسان في الآخرة، من عبادة لله وحده دون شريك، والتزام بما جاء من عند الله.. هو الذي يحقق غاية الوجود الإنساني، وينشئ "الحضارة" الصحيحة..

إن "الحضارة" ليست مجرد البراعة في الإنتاج المادي، وإن كان هذا مطلوباً للنجاح والتمكين في الأرض، ولكن هذه البراعة وحدها، من غير الالتزام بالمنهج الصحيح لا تنشئ حضارة حقيقية، أو قل إنها تنشئ "حضارة جاهلية" إن صح التعبير[٤]. حضارة تحقق جانباً من كيان الإنسان ولا تحقق كيانه كله، ولا تحقق أثمن ما فيه. وتدمره في النهاية!

إن التصنيع والتحسين والتجميل في المجال المادي، هو مما أنعم الله به على الإنسان، وفضّله به على كثير ممن خلق.. ولكن أثمن ما منّ الله به عليه هو عالم القيم..

---

(١) تحدثت عن هذا الموضوع في كتاب "حول التفسير الإسلامي للتاريخ"، في فصل "معيار الإنجاز البشري".

(٢) الملك: ١٥.

(٣) القصص: ٧٧.

(٤) يصح إذا أخذنا الحضارة بالمصطلح اللغوي أي فعل أهل الحضر.

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[1].

وبغير هذه التقوى –التي هي حصيلة الإيمان بالله الواحد، والإيمان باليوم الآخر– يصبح التصنيع والتحسين والتجميل في الجانب المادي مهلكة للإنسان –كما هو الحادث اليوم في الجاهلية المعاصرة؛ لأنه يغري بمزيد من الانطلاق مع الشهوات، ومزيد من الصراع على المتاع الأرضي؛ فيحدث الدمار الذي كتبه الله على الفجار:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[2].

الحضارة الحقيقية إذن هي التي تعمّر الأرض بمقتضى المنهج الرباني. هي التي تجمع أمر الدنيا والآخرة. أمر الجسد والروح. أمر العمل والعبادة. هي التي تأخذ الإنسان كله، بحسياته ومعنوياته، بنشاط جسده ونشاط عقله ونشاط روحه. بإبداعه في عالم المادة وارتفاعه في عالم القيم.. هي حضارة "الإنسان" في أفقه الأعلى.. يدب على الأرض بقدميه، وقلبه معلق بالسماء..

وقد كانت كذلك الحضارة الإسلامية حين كانت الأمة في أوجها..

ما من مجال من مجالات النشاط الخيّر إلا خاضه المسلمون.. بناء المدن. تعبيد الطرق. السياحة في الأرض لكشف مجاهيلها. استغلال ما سخّر الله للناس من طاقات السماء والأرض في البناء والتعمير. التقدم العلمي. التهذيب الخلقي. الصدق. الأمانة. الجد والجلد والمثابرة.. وكل الخصال التي تنشئ أمة عظيمة..

ولكن انظر إلى المدينة الإسلامية..

إن مركزها الذي يتجمع الناس فيه، وينطلقون منه، هو المسجد الجامع.. ويا له من جامع!

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الأنعام: ٤٤–٤٥.

إنه ليس السوق، وليس ملاعب اللهو الماجن كما هو اليوم مركز المدينة في الجاهلية المعاصرة..

إنه المكان الذي يتذكرون فيه ربهم، ويتعبدون إليه، وفيه يتلقون علم دينهم.. وإنهم ليمشون في مناكب الأرض يومهم كله، بحثاً عن رزق الله. ولكنهم ينطلقون ابتداء من هذا المكان، ثم يعودون إليه على فترات متقاربة، ليؤدوا صلاتهم، فيذكرهم بالآخرة التي هم عائدون إليها بعد حياتهم الدنيوية القصيرة، فيسعون لها سعيها، ويحققون بذلك أمر الله:

(..فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(١).

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً)(٢).

إن المسجد لم يشدهم إليه؛ ليمكثوا فيه ويكفوا عن السعي في مناكب الأرض.. والسعي في مناكب الأرض لم يلههم عن الرجوع إلى المسجد؛ ليتزودوا فيه بالطاقة اللازمة لمسيرة الحياة:

(وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)(٣).

وانظر إلى عمارة البيت الإسلامي في المدينة الإسلامية.. إنه وافٍ بكل احتياجات المسلم –كل على قدر سعته– إن فيه مكاناً لاستقبال الضيوف. فالمسلم كريم، وروابط الإخاء والمودة تربط بين الناس فيتزاورون. وفيه مكان للمعيشة وتناول الطعام. وفيه مكان للمبيت.. ولكن الفارق الأساسي بينه وبين بيت المدينة الجاهلية المعاصرة أن فيه "حرماً مصوناً" لا يرى الأجنبي فيه أهل البيت وهن يقمن بنشاطهن اليومي المطلوب للحياة.. إنه منزل تلتقي فيه "المصلحة" بالأخلاق التي فرضها الله؛ وتلتقي فيه الحياة الدنيا بالآخرة..

وله آداب..

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الإسراء: ١٩.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ، قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...)[1].

إنها آداب.. وإنها أخلاق.. وإنها حضارة.. وإنه دين!

* * *

وانظر إلى المؤسسات "الحضارية" في المدينة الإسلامية..

ديوان الحسبة. ديوان القضاء. ديوان المظالم. المدارس. البيمارستانات. دور العجزة. دور الرفق بالحيوان. الحمامات العامة. المكتبات العامة. "نقابات" الصناع. الأوقاف.. الخ.. الخ..

إنها كلها ذات دلالة حضارية واضحة. ولكن المهم فيها -في المدينة الإسلامية- أنها مؤسسات أقيمت بدافع ديني، ولتؤدي أهدافاً دينية.. فأنت حيثما تحولت في المدينة، وأيا كانت وجهتك، في لقاء دائم مع شيء أو شخص أو مؤسسة أو نظام يذكرك بالله، ويذكرك باليوم الآخر، ويذكرك أن هدف حياتك الأكبر هو عبادة الله، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة، الذي يشمل فيما يشمل عمارة الأرض بمقتضى منهج الله.

وبالإضافة إلى ذلك كان المجتمع الإسلامي -سواء في الريف أو البادية أو المدينة- أقل مجتمعات العالم جريمة، وأقلها -بالذات- وقوعاً في الفاحشة، نتيجة إيمانه بالله واليوم الآخر، ونتيجة تطبيق المنهج الرباني، وتطبيق شريعة الله.

وهذا عنصر "حضاري" لا يجوز أن نغفله ونحن نتحدث عن المقتضى الحضاري للا إله إلا الله، خاصة ونحن نعيش في ظل "حضارة جاهلية" هائلة.. لا تنقطع الجريمة فيها لحظة من ليل أو نهار!

---

(١) النور: ٢٧-٣١.

* * *

وعودة إلى عناصر "الالتزام" في قضية الحضارة..

لقد تحدثنا عن التكليف العام للإنسان –الخليفة– بعمارة الأرض. والتكليف الخاص للإنسان المؤمن –الخليفة الراشد– بتعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني..

والآن نتحدث عن عنصر آخر من عناصر الإلزام بالنسبة لهذه الأمة بالذات.. إنه "الشهادة" على كل البشرية:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[1].

إن الشهادة على الناس تقتضي أن تعطي هذه الأمة المثال الصحيح في كل شيء، وأن تكون مبرزة في كل أبواب الخير..

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[2].

إن الشهادة الكبرى هي الشهادة لهذا الدين.. تبليغ الرسالة المحمدية إلى البشر كافة، وتعليمهم –عن طريق القدوة العملية– كيف يكون التطبيق العملي لهذا الدين في واقع الأرض. وبهذا تكون الأمة قد "شهدت" على الناس.

والشهادة تقع بين يدي الله يوم القيامة، سواء من الأمة على الناس، أو من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على الأمة.. ولكن كيف تتم الشهادة يوم القيامة إن لم تقم –مثالاً واقعياً– في الحياة الدنيا؟!

كيف يشهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على الأمة يوم القيامة؟ إنه يشهد بجهاد الدائب الذي لم يفتر لحظة خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشر سنوات في المدينة لتعليم الأمة أمر دينها –بالقدوة العملية– وتربيتها على مقتضيات الدين. فإذا قال يوم

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) آل عمران: ١١٠.

القيامة بين يدي مولاه: ألا إني قد بلغت! فقد صدق، وهو الصدوق عليه الصلاة والسلام. وتشهد له أمته يوم القيامة كما شهدت في حجة الوداع، حين وقف عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع يخاطب الجموع: ألا هل بلغت؟ فيؤمن الناس، فيقول عليه الصلاة والسلام: اللهم فاشهد!

وعلى نسق ما يشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أمته يوم القيامة وتشهد له، تشهد هذه الأمة على "الناس" فلا يشهدون لها إلا حين تكون قد أعطت النموذج العملي، الذي تتعلم منه البشرية حقيقة هذا الدين..

ولقد قامت الأمة بالفعل -ردحاً من الزمن غير قصير- بتبليغ الرسالة، والجهاد في سبيلها، وتعليم الناس بالقدوة العملية كيف يكون التطبيق العملي لهذا الدين..

فهل هو دين للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا؟!

أم هو دين الدنيا والآخرة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[1].

وهل هو دين الروح وحدها منفصلة عن الجسد؟:

(وإن لبدنك عليك حقا..)[2].

وهل هو دين "عبادة" فقط، بالمعنى المحدود للعبادة، أي القيام بالشعائر التعبدية؟

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3].

إنه -بحكم التوجيهات الربانية- دين سياسة واقتصاد واجتماع وجهاد وعمل لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني..

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) الجمعة: ١٠.

فكيف تشهد الأمة الإسلامية بهذا الدين على الناس، إن لم تطبق كل مقتضياته -كلها على الإطلاق- وتتفوق فيها لتعطي النموذج المطلوب؟

إنه ليس تطوعاً من هذه الأمة أن تقوم بنشاطها الحضاري.. ولكنه تكليف!

* * *

ومن باب ثالث يجيء الإلزام..

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)[1].

والدين لا يظهر -في عالم الواقع- بقوة "الكلمة" وحدها، مهما تحدث الكتاب والخطباء عن قوة الكلمة!

كم في البشر مثل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- آمن بالحق بمجرد أن آمن أنه الحق؟!

وكم في البشر مثل الصحابة -رضوان الله عليهم- الذين آمنوا لما عرفوا الحق، في وجه اضطهاد لا مثيل له؟!

إنما يتلكأ معظم الناس حتى يروا الحق قد "ظهر"! وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً!

ولكي "يظهر" الحق لا بد له من "أدوات" تسانده، إلى جانب وجود العصبة المؤمنة -أي القاعدة الصلبة- التي تؤمن به إيماناً راسخاً، وتستمسك به في وجه الاضطهاد والعذاب، وتموت في سبيله، وتضحي في سبيله بمتاع الدنيا كله..

والقوة من هذه الأدوات.. ولذلك قال تعالى:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ)[1].

---

(١) الصف: ٩.

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ..)[2].

والوجود الحضاري كذلك من الأدوات..

وقد انتشر الإسلام في مساحة واسعة من الأرض بتأثير "النموذج الحضاري" الذي قدمه الإسلام..

وحين تذكر الحضارة يتبادر إلى أذهان بعض الناس الترف الحضاري المتمثل في أبهة القصور..

كلا! هذه ليست الحضارة بمفهومها الإسلامي.. إنما هذه مدمرات الحضارة!

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)[3].

إنما الحضارة قيم قبل كل شيء.. ثم مظاهر تنظيمية ومادية بعد ذلك.

والمسلمون الأوائل الذي فتحوا قلوب الناس للإسلام لم يكونوا يملكون من مظاهر الحضارة المادية إلا النزر اليسير.. ولكنهم كانوا يملكون لب الحضارة الحقيقي.. رفعة النفس – نظافة المشاعر– العدل– الحب– التواضع لله– سمو المبادئ– نبل الأخلاق– التوجه الجاد للهدف النبيل– انضباط الحركة– النظام...

ثم جاءت المظاهر المادية للحضارة تباعاً مع استقرار الأمة وتمكنها في الأرض.. ولكنها ظلت –والأمة أمة– خاضعة لأهداف الإسلام العليا، فكانت النور الذي أشرق في قلوب الناس وأفكارهم في القارات الثلاث المعمورة يومئذ..

حتى إذا أترفت الأمة –أو أترف أغنياؤها– وتواكل فقراؤها وقعدوا.. أصابتها السنة الربانية التي لا تتخلف..

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الإسراء: ١٦.

واليوم يجيء الغزو الحضاري الزائف من الغرب.. وتنبهر به القلوب الخاوية من حقيقة الإسلام..

كلا! ليس هذا هو الذي ينقذ الأمة من تخلفها!

إنما الذي ينقذها أن تعود إلى المفهوم الإسلامي للحضارة.. مفهوم جاد.. لا عبث فيه ولا لهو ولا مجون.. مفهوم رفيع المستوى؛ لأنه مستمد في حقيقته من لا إله إلا الله؛ لأنه من مقتضيات لا إله إلا الله..

والمظاهر المادية -في حدودها المعقولة- ضرورية للحياة البشرية "المتقدمة".. ولكنها بغير "القيم" الحقيقية، المستمدة من المنهج الرباني، لا تقيم أمة، ولا تحقق الوجود "الإنساني" الذي يريده الله للعباد:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً)[1].

سابعاً: المقتضى التعبيري

"قل، وروح القدس معك"!

هكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لحسان بن ثابت -رضي الله عنه-، وهو ينافح بشعره عن الدعوة، وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونفهم من هذا التوجيه النبوي لحسان بن ثابت -رضي الله عنه-، لا مجرد الإباحة، بل الحث والتحضيض..

بل أحس كأنه تكليف..!

فمن حق الدعوة على الذين وهبهم الله موهبة البيان أن يعطوها حقها مما وهبهم الله..

ولكنه على أي حال فرض كفاية.. إذا قام به البعض سقط الإثم عن بقية الأمة، وجاز لبقية من يملكون الموهبة البيانية أن ينصرفوا لهمومهم الخاصة!

---

(١) النساء: ٢٧.

ولكن هناك فرض عين عليهم جميعاً.. على كل مسلم يملك الموهبة البيانية والقدرة على التعبير الفني.. أن يلتزموا في نشاطهم التعبيري بمقررات الإسلام؛ وهذا هو المقتضى التعبيري للا إله إلا الله.

* * *

ما بنا هنا أن نتحدث عن منهج التعبير الإسلامي، فذلك بحث متخصص، وكل حديثنا في هذه العجالة إشارات[1]..

ولكنا معنيون في هذه العجالة بأمر رئيسي، هو بيان الصلة بين كل نشاط يقوم به المسلم وبين عقيدته، تحقيقاً لقوله تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[2].

والرغبة في التعبير عن مكنون النفس في صورة جمالية رغبة فطرية، وإليها يرجع وجود الآداب والفنون في تراث كل أمة عاشت على الأرض منذ عهد الكهوف إلى وقتنا الحاضر.. وإذا كان الموهوبون في هذا المجال قلة بالنسبة لمجموع الناس، فإن بقية الناس يشاركون بالتلقي، والاستمتاع بالإنتاج الفني والحفاوة به، لأنه يعبر لهم عن مكنون نفوسهم، فيتمثلون به وينشدونه كأنهم هم القائلون..!

وما دام هذا نشاطاً فطرياً –سواء بالإنتاج أو التلقي– فهو داخل في نطاق الآية.. داخل في "محياي".. ويجب –في الإسلام– أن يكون لله رب العالمين..

ويتبادر إلى أذهان كثير من الناس حين يسمعون هذا القول أن الأدب –أو التعبير الفني– يجب أن ينقلب كله وعظاً، ليكون أدباً دينياً، ويكون "لله رب العالمين"..

وليس المقصود ذلك

إن للوعظ مكانه، ومكانته.. ولكن حين ينقلب كل كلامنا وعظاً فإنه يضر أكثر مما ينفع..

(١) اقرأ إن شئت كتاب "منهج الفن الإسلامي".

(٢) الأنعام: ١٦٢–١٦٣.

يقول الصحابة رضوان الله عليهم: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتخولنا بالموعظة (أي بين الحين والحين) مخافة السآمة..

فإذا كان هذا حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم، الذين كانوا يتلقفون كل كلمة ينطق بها، ليتعلموها ويعملوا بها، يقيناً منهم أنها طريقهم إلى الجنة.. فكيف بنا نحن البشر العاديين إذا حوّلنا كل قولنا إلى وعظ؟!

كلا! ليس الفن وعظاً.. وإن كان للموعظة مدخلها إلى الفن حين تكون كلاماً بليغاً يهز مشاعر النفوس.

إنما التعبير الفني تعبير غير مباشر، يصل إلى نفوس الناس ويؤثر في وجدانهم من خلال مواقف حية، ومشاعر معروضة، وتصرفات دالة، لا من خلال الموعظة المباشرة..

فما الذي يجب على المسلم الذي وهب الله له القدرة على التعبير الجمالي؟

إن الدعوة في حاجة دائمة لمن يذود عنها.. فالحرب عليها قائمة أبداً لا تفتر، لأنها حرب الشيطان التي توعد بها البشر:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ [1]صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[2].

ولا بد من وجود مؤمنين يجاهدون فيدفع الله بهم قوى الشر لكي لا تفسد الأرض:

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[3].

---

(١) الأعراف: ١٦-١٧.

(٢) ص: ٨٢-٨٣.

(٣) البقرة: ٢٥١.

والحرب على الدعوة -اليوم- تستخدم فيها كل صنوف التعبير.. سواء كانت هجوماً مباشراً على الإسلام ومبادئه ومفاهيمه وعقيدته وشريعته وتقاليده، أم كانت إفساداً للأخلاق وشغلاً للناس بالتوافه وسفاسف الأمور.. فهذا وذاك جزء من الجهد المبذول لغواية الناس عن الحق، وزحزحتهم عن طريق الله..

والمسلمون أولو الموهبة التعبيرية عليهم أن يردوا هذا العدوان الدائم، سواء ببيان حقيقة الإسلام، أو بتعرية الجاهلية المعاصرة ومفاهيمها الضالة وموازينها المختلة، وكشف ما يقوم به شياطينها من جهد تخريبي، أو بدعوة الناس إلى الارتفاع عن اللهو والعبث وسفاسف الأمور.. وليس أقسى على الشيطان وأولياء الشيطان من أن ينصرف الناس عن اللهو والعبث وسفاسف الأمور!

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ)[1].

فإذا قام بهذه الفريضة فريق كاف من ذوي الموهبة التعبيرية، وجاز لبقية أصحاب الموهبة أن ينصرفوا إلى همومهم الخاصة، فلهم ذلك، بالشرط الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو الالتزام بمقررات الإسلام..

إن الأديب المسلم مفروض فيه أن تكون أفكاره ومشاعره -كأعماله وتصرفاته- نابعة من الإسلام، منضبطة بضوابط الإسلام. والأديب بشر على أي حال، وليس البشر ملائكة، ولا مفروضاً فيهم أن يصبحوا ملائكة..

"كل بني آدم خطاء.."[2].

ولكن خير الخطائين التوابون كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[1].

(١ النحل: ٩٩-١٠٠.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي.

نعم، ليس المفروض في الأديب المسلم أن يخرج عن بشريته.. ولكن المفروض فيه مع ذلك ألا يذيع على الناس إلا ما هو خير؛ فإن إذاعة ما قد يقوله شاعر، أو أديب عن لحظة من لحظات هبوطه هي "إصرار" يحجب المغفرة، فإنما يغفر الله للذين استغفروا "ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون"..

ومن ثم يبتعد الأديب المسلم عن كل تعبير مسف، أو دعوة إلى الإسفاف..

وليس معنى ذلك من جانب آخر أنه يحرم عليه أن يشير إلى الإسفاف والمسفين! ففي سورة يوسف في كتاب الله الكريم وصف كامل دقيق للحظة من لحظات الهبوط البشري، ولكن كيف وردت القصة في كتاب الله؟

إنها لم تقف عند لحظة الهبوط تعرضها عرضاً مفصلاً كما يفعل كتاب "الإثارة" بحجة الفن! ولم تعرضها العرض الذي يثير الإعجاب بفاعلها، كما يفعل قصاصو الجنس "ببطل!" القصة و"بطلتها!"[٢]، ثم إن "اللقطة الأخيرة" في القصة لم تكن لحظة الهبوط، إنما كانت لحظة الإفاقة والعودة إلى الله:

(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[٣].

كذلك يلتزم الأديب المسلم بالتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.. وهو -كما قلت في كتاب "منهج الفن الإسلامي" -تصور واسع شامل عميق، يملأ الوجدان البشري بالحق، فإذا عبر عنه تعبيراً جميلاً، فهذا هو الفن الحقيقي الجدير بأن يكون فناً والجدير بأن يطرد الفن الزائف من الساحة، أو يزيحه من الطريق..

إنه حين يقوم المسلمون -مَنْ وُهِبَ منهم الموهبة التعبيرية- بأداء "المقتضى التعبيري" للا إله إلا الله، فلن تظهر الفقاقيع التي تملأ الساحة اليوم، من حداثة، أو نحوها، فكلها

---

(١) آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

(٢) من الكيد المقصود أن يهبط "الفن" بمعنى "البطولة" الذي هو أصلاً من معاني الجهاد لإعلاء كلمة الله حتى يصبح "البطل" و"البطلة" ممثلاً تافهاً، أو راقصة ساقطة، أو مجرماً من المجرمين!

(٣) يوسف: ٥١-٥٣.

فقاقيع لا تستحق الحياة، ولكنها وجدت، وانتفشت، بسبب خلو الساحة من الأدب الحقيقي الذي يؤدي مقتضيات لا إله إلا الله، بالأساليب الفنية الجمالية التي يستلزمها الأداء الفني..

ومع أننا هنا لا نتعرض للبحث المتخصص، فلا بأس من أمثلة سريعة تشير إلى الطريق..

الفنان الجاهلي يرفع شعار "الفن للفن".. وتحت هذا الشعار يعيث فساداً في الأرض، ويسانده نقاد من جبلته، وجمهور يبحث أصلاً عن الفساد واللهو، ولا يبحث عن الرفعة والاستقامة، أفسده أولياء الشيطان من اليهود وغير اليهود، وزينوا له الهبوط بدعوى "التحرر" و"الانطلاق"!

والفنان المسلم غايته رفع الناس إلى المستوى اللائق بكرامة "الإنسان" الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق..

وهناك –في الجاهلية المعاصرة خاصة– فنانون "ملتزمون" لا يقبلون شعار "الفن للفن" ويستعيضون عنه بشعار وثني آخر: "الفن للحياة"! أي حياة؟ من الذي يقرر معاييرها ومبادئها؟!

والفنان المسلم لا يقبل شعار "الفن للفن" ولا يقبل كذلك شعار "الفن للحياة" بمفهومه الجاهلي المعاصر..

إنما الفن –ككل نشاط يقوم به البشر– غايته عبادة الله بالمعنى الواسع الشامل للعبادة، الذي يشمل –فيما يشمل– عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني..

إن وجود الظلم في الأرض.. بكل أنواعه ومجالاته.. سواء الظلم السياسي، أو الظلم الاجتماعي، أو الظلم الاقتصادي.. الخ، منافٍ للتعاليم الربانية، حيث يقول تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"[1].

---

(١) أخرجه مسلم.

وعلى رأس أنواع الظلم كلها الشرك بالله، فهو منبع الظلم كله:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[1].

والفنان المسلم -بحكم إسلامه- يقف موقف الإنكار لكل أنواع الظلم، وموقف الجهاد كذلك، فيبدع فناً يدين فيه الظلم، ويعريه، ويدعو إلى إزالته، ويقدم البديل منه.. وهنا قد يبدو مشابهاً للفنان الجاهلي الذي يتصدى لمهاجمة الظلم والدعوة إلى إزالته.. ولكنه في الحقيقة يفترق عنه في أمور..

يفترق عنه ابتداء في البديل الذي يقدمه.. فليس البديل هو الاشتراكية، ولا هو الديمقراطية، ولا هو العلمانية، ولا هو تحطيم كل القيود اعتباطاً والدعوة إلى الفوضوية، ولا هو الوجودية، ولا هو "الحداثة" التي تدعو إلى تحطيم "التراث" والتخلص من روابطه!

البديل هو المنهج الرباني.. فقد نشأ الظلم ابتداء من اتباع مناهج البشر، وكل البدائل المعروضة في الساحة هي من مناهج البشر.. مناهج الجاهلية التي قال الله عنها:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[2].

ويفترق عنه كذلك في تفسير الوقائع التي يعرضها في إنتاجه..

فأما إن كان من هواة التفسير المادي للتاريخ فسيرجع الأسباب كلها إلى الأوضاع الاقتصادية، وإلى تحكم الطبقة المستغِلّة وإذلالها للطبقة الكادحة، وسيدين المستغلين -الإقطاعيين، أو الرأسماليين- وسيذرف الدموع على الكادحين المسحوقين، ولكنها ليست دموعاً "أخلاقية" ولا "إنسانية" إنما هي دموع "اشتراكية!" قوامها المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ، والدعوة إلى سحق المستغلين ليتولى الأمر بدلاً منهم الكادحون!

وأما إن كان من هواة التحليل النفسي فسيرجع الأمور إلى الاضطرابات والعقد النفسية، وسيتعاطف مع المجرم؛ لأنه -مسكين!- فريسة عقدته، ومجنيّ عليه من مجتمعه!

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) المائدة: ٥٠.

وأما إن كان من الوجوديين فسيرجع الأمور إلى أن الفرد لم يجد نفسه؛ لأن قيود الدين والأخلاق والمجتمع، أو بالأحرى ضغوط "الآخرين" قد سحقت وجوده الفردي فلم يحقق ذاته.. ولا بد له أن يحقق ذاته.. وليذهب "الآخرون" إلى الجحيم[1]!

وأما إن كان من الحداثيين فالجريمة جريمة التراث! جريمة الماضي! جريمة عدم انعتاق الحاضر من عقابيل القيم التراثية التي تعوّق المسيرة وتكبّل السائرين! أو "الثائرين"!

أما الفنان المسلم، المهتدي بهدي الله، فسيبين للناس الحقيقة..

إن الحقيقة وراء هذه الاختلالات كلها الموجودة في الأرض، هي عدم إيمان الناس بالله واليوم الآخر، ومن ثم عدم اتباع ما أنزل الله، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ومن ثم اتباع مناهج الأرباب البشريين سواء كانوا إقطاعيين أو رأسماليين أو شيوعيين، وانسحاق "المستضعفين" تحت جبروت تلك الأرباب. وكلهم شريك في مسئولية الفساد: الذين استكبروا باتخاذهم أنفسهم أنداداً لله، والذين استضعفوا باتخاذهم الذين استكبروا أرباباً من دون الله. ولا صلاح للأرض، ولا زوال للظلم، حتى يتخلى الأرباب المزيفون عن ربوبيتهم، ويتخلى المستضعفون عن عبادتهم. وذلك بعبادة الله وحده دون شريك، والجهاد المقدس لإعلاء كلمة الله وإزالة الطواغيت..

تلك -كما قلنا- إشارات سريعة، ليس المقصود بها الاستيعاب.. إنما هي لبيان "المقتضى التعبيري" للا إله إلا الله في مجال التعبير الجمالي عن مكنونات النفس..

فإذا أضفنا "الإعلام" بوصفه جزءاً من المجال التعبيري للأمة، فنقول كذلك: إن إعلام الأمة الإسلامية لن يكون كله وعظاً ودروساً دينية، وإن كانت هذه جزءاً لا يتجزأ من الإعلام الإسلامي لتذكير الناس بالله واليوم الآخر..

إنما الإعلام في الأمة الإسلامية له عدة أهداف..

أولاً: تعريف الناس بحقيقة دينهم.. أي تعريفهم -تفصيلاً- بمقتضيات لا إله إلا الله، وذلك عمل دائب لا ينقطع، وقد استغرق من حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة

(١) لسارتر مسرحية عنوانها "الجحيم هو الآخرون"!!

عشر عاماً في مكة وعشر سنوات في المدينة لم ينقطع فيها عن تعليم الناس مقتضيات لا إله إلا الله.

ثانياً: تعريف المسلمين بكيد أعدائهم؛ ليحذروه ولا يقعوا في حبائله.. وفي السور المدنية حديث مفصل عن هؤلاء الأعداء، وباعثهم على الموقف العدائي الذي يقفونه من لا إله إلا الله، وأمة لا إله إلا الله، وأساليب الكيد التي يتخذونها، ووسائل الوقاية من هذا الكيد.

ثالثاً: إعطاء رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر: ما القوى التي تعمل فيه؟ ما موقفها من بعضها البعض؟ ما موقفها من الإسلام والمسلمين؟ ما تفسير الأحداث الجارية من زاوية الرؤية الإسلامية؟ كيف يؤثر كون الجاهلية جاهلية فيما يعيشه الناس من ضنك في الأرض، وفي حدوث الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تنتاب العالم؟ ما السنن الربانية التي تحكم هذا الواقع وتفسره؟ ما المخرج للناس مما هم فيه؟

وفي هذا العرض الإعلامي لن يكون هناك ذكر -ولا إشادة- "بالدول العظمى!" إنما هي "الجاهليات العظمى"، أو "الطواغيت" الممكّنة في الأرض بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)[1].

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ..)[2].

وما مصيرها في الدنيا والآخرة؟

(..حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[3].

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[1].

---

(١) هود: ١٥.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) الأنعام: ٤٤-٤٥.

رابعاً: تذكير الأمة برسالتها التي أخرجها الله من أجلها: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، والشهادة على كل البشرية.. وبيان الوسيلة التي تحقق الأمة بها رسالتها.. وبيان دور الجهاد في حياة هذه الأمة، وأنه ليس إكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما هو إزالة الفتنة من الأرض:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه)[٢].

وحين يكون الإعلام الإسلامي على هذا النحو فما أثمنه من إعلام، وما أجدره أن يدخل في المقتضى التعبيري للا إله إلا الله.

* * *

كلمة أخيرة عن مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية..

إن هذه المقتضيات -كما تبين لنا من العرض السابق- هائلة شاملة، تشمل كل جوانب الكيان البشري والحياة البشرية، وكل متطلبات الأمة الربانية التي أخرجها الله؛ لتكون هادية ورائدة وشاهدة على كل البشرية، لا في ماضيها الذي كان يوم أن أخرجت للناس، ولكن في حاشرها ومستقبلها إلى قيام الساعة..

صحيح أنها ليست كلها على درجة واحدة من الارتباط بالعقيدة..

فهناك الجذور الثلاثة الكبرى التي لا يوجد الإيمان أصلاً إذا لم تكن قائمة، وهي "المقتضى الإيماني" و"المقتضى التعبدي" و"المقتضى التشريعي"؛ لأن نقضها، أو نقض أي واحد منها، أو عدم وجودها، يؤدي إلى نقيضها وهو الشرك بجذوره الثلاثة الكبرى: شرك الاعتقاد، وشرك العبادة، وشرك التشريع. وكلها من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالرجوع عنه، والتوبة منه:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً)[١].

---

(١) هود: ١٦.

(٢) الأنفال: ٣٩.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

أما بقية المقتضيات فإن التقصير فيها، أو عدم القيام بها لا ينقض أصل الإيمان، ولكنه ينافي تمامه، ويلحق المقصر الإثم فيه.

هذا من جانب الأحكام المتعلقة بها، ولم يكن هذا هدفنا في هذا الفصل[٣]. إنما هدفنا أمران:

الأول: بيان أنها كلها متعلقة بلا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله تشملها جميعاً بلا استثناء، ولا شيء منها يخرج عن نطاق لا إله إلا الله.

الثاني: بيان أنها كلها من متطلبات قيام الأمة الربانية.. لا تقوم بدونها.. وكل نقص في أدائها هو في آن معاً نقص في أداء لا إله إلا الله، ونقص في مقومات الأمة التي سيسألها الله يوم القيامة عن رسالتها، وكيف قامت بها:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[٤].

---

(١) النساء: ١١٦.

(٢) البقرة: ١٥٩-١٦٠.

(٣) سنتكلم في فصل تال عن "نواقض لا إله إلا الله".

(٤) الزخرف: ٤٤.

الانحرافات التي طرأت على مفهوم لا إله إلا الله

هذا المفهوم الشامل للا إله إلا الله في الرسالة المحمدية -بمقتضياته التي تحدثنا عنها في الفصل السابق- هو الذي أخرج "خير أمة أخرجت للناس".

لقد كانت هذه المقتضيات أوسع وأشمل ما ورد من مقتضيات للا إله إلا الله في تاريخ أي أمة سبقت.. وكان هذا طبيعياً ومنطقياً مع اكتمال الدين من ناحية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)[١].

وختم الرسالة من ناحية أخرى:

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)[٢].

وكونها رسالة موجهة للبشرية كافة من ناحية ثالثة:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً)[٣].

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)[٤].

فإذا كانت هي التي اكتمل بها الدين، وهي الموجهة للبشرية كافة، وهي الباقية إلى قيام الساعة؛ لأنه لا رسالة بعدها ولا رسول، فقد لزم في علم الله وتقديره أن تكون مقتضياتها شاملة لكل صغيرة وكبيرة في حياة الأمة التي تحملها وتتحرك بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

(٣) سبأ: ٢٨.

(٤) الأعراف: ١٥٨.

وكذلك هي في حقيقتها كما رأينا فيما مر بنا من إشارات إلى أبرز مقتضياتها..

كيف انحسرت تلك المقتضيات إذن في حس الأجيال المتأخرة -إلا ما رحم ربك- حتى صارت مجرد كلمة تنطق باللسان؟!

تلك رحلة طويلة خلال التاريخ، تحدثت عن بعض معالمها في كتاب "واقعنا المعاصر"[1].. ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أبرزها لنعلم كيف أفرعت لا إله إلا الله تدريجياً من محتواها الحي، وكيف صاحب ذلك ضمور تدريجي في حجم الأمة بمقدار ما أهملت من مقتضيات لا إله إلا الله؛ حتى إذا صارت لا إله إلا الله في نهاية الأمر مجرد الكلمة التي تنطق باللسان، صارت الأمة إلى ذلك الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

"يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال. أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل"[2]:

* * *

من أبرز العوامل التي عملت على تفريغ لا إله إلا الله من مقتضياتها الفكر الإرجائي الذي يقول: إن الإيمان هو التصديق القلبي، أو هو التصديق القلبي والإقرار اللساني، وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان!!

وقد نعجب من دخول هذا الفكر ساحة الإسلام.. والإسلام كله عمل..

لا الدعوة تقوم بغير عمل وجهاد..

ولا الدولة تقوم بغير عمل وجهاد..

ولا تطبيق الشريعة يقوم بغير عمل وجهاد..

ولا إقامة مجتمع يلتزم بأوامر الله ويطبقها في عالم الواقع يقوم بغير عمل وجهاد..

---

(١) اقرأ إن شئت فصل "خط الانحراف" وفصل "آثار الانحراف".

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

ولا إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها يتم بدون عمل وجهاد..

ولا عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني تتم بدون عمل وجهاد..

لا شيء.. لا شيء.. فكيف تدسس ذلك الفكر الدخيل إلى ساحة الإسلام، ووُجِدَ فيه من يقول: إن الإيمان هو التصديق والإقرار وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان؟!

لقد جاءت البلوى من عدوى المنطق والفلسفة[١]، حيث أريد الإتيان بتعريف "فلسفي"، أو "منطقي" للإيمان، فقال قائلهم: إن التعريف يجب أن يكون تحديداً للشيء بحيث يكون هو هو لا يتغير، ولا يزيد ولا ينقص، وهو التصديق والإقرار!

إنها مهزلة أن تتحكم مقررات البشر، الجاهليين منهم خاصة[٢]، في تحديد تعريف لدين الله، الذي حدده منزله سبحانه وتعالى، ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وبينه الكتاب والسنة البيان الأوفى.. وقرر الكتاب المنزل أن المرجع في كل أمر من أموره هو الله:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ)[٣].

(فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[٤].

ولكن المهزلة -مع كونها أثراً من آثار الغزو الفكري اليوناني[٥]- فقد ظلت فترة من الوقت محصورة في دائرة علم الكلام، أو كما نقول اليوم، ظلت في الأبراج العاجية لا تنزل إلى ساحة الواقع، وظل المسلمون يتلقون أمور دينهم من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يلتفتون إلى ما يلوكه علماء الكلام من قضايا لا صلة لها بعالم الواقع.

ولكن الطامة جاءت حين بدأ الناس يتفلتون من التكاليف..

(١) سنتحدث في ثنايا الفصل عن أثر الغزو الفكري اليوناني في الفكر الإسلامي.

(٢) كان اليونان أمة جاهلية وإن كانوا فلاسفة!

(٣) الشورى: ١٠.

(٤) النساء: ٥٩.

(٥) سنتحدث في ثنايا الفصل عن أثر الغزو الفكري اليوناني في الفكر الإسلامي.

إن التفلت من التكاليف طبع بشري صاحَب الإنسان منذ نشأته:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)(١).

ولكن الله أنزل لهذا الداء دواء، هو التذكير:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)(٢).

وحين كان الناس في الأجيال المفضلة الأولى يجدون من يذكرهم، لا بالقول وحده، ولكن بالقدوة العملية، كان الأمر قريب التناول، والمشكلة محصورة في حدود لا تشكل خطراً على كيان الأمة.

فلما زاد حج التفلت مع تباعد الزمن عن الأجيال المفضلة، وقل حجم التذكير بالقدوة الصالحة، هنا بدأ الفكر الإرجائي ينزل من الأبراج العاجية إلى الساحة العملية، ليغطي المساحة التي انحسر عنها العمل بمقتضيات لا إله إلا الله!

ولنتصور –للتقريب– أن العمل بمقتضيات لا إله إلا الله كان كاملاً، أو قريباً من الكمال في الأجيال المفضلة، فكان الفكر الإرجائي معلقاً في الأبراج العاجية لا مكان له في الساحة العملية.. فلما انحسر العمل بمقدار عشرة في المائة –مثلاً– نزل الفكر الإرجائي؛ ليغطي المساحة المكشوفة، وليقول للناس: إن إيمانكم كامل على الرغم من هذا القدر من الانحسار!

فلما انحسر العمل خمسين في المائة، فقد اتسعت مساحة الفكر الإرجائي؛ لتغطي الخمسين في المائة، ولتقول للناس: إن إيمانكم كامل على الرغم من هذا القدر من الانحسار! فلما انحسر العمل مائة في المائة فقد وجد من يقول: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام!!

(١) طه: ١١٥.

(٢) الذاريات: ٥٥.

ومع كل السوء والانحراف في هذه القولة الأخيرة، فقد وجد في العصر الأخير ما هو أسوأ منها! حيث اعتبر قول لا إله إلا الله باللسان مانعاً من الحكم على أحد بالكفر، ولو نقض لا إله إلا الله بأقواله وأفعاله في اليوم مائة مرة[١]!

وحقيقة إن لب المشكلة كان تفلت الناس من التكاليف، وقلة التذكير بالقدوة العملية، وانصراف كثير من "العلماء" عن مهمة التربية، وحصرهم جهودهم في مهمة التعليم وحدها، في حين كانت مهمتهم –وهم ورثة الأنبياء– تشمل التربية والتعليم معاً في آن واحد..

نعم، ولكن الفكر الإرجائي قد أدى ولا شك إلى تفاقم المشكلة، فحين يخطئ الناس –وكل بني آدم خطاء– ولكنهم يدركون أنهم على خطأ، فسيظل الانحراف محصوراً مهما اتسع نطاقه، لأنه انحراف في السلوك وحده، بينما التصور صحيح. أما حين يكتسب الخطأ شرعية الوجود، فكيف يقف عند حد من الحدود؟!

لو تفلت الناس وهم شاعرون أن إيمانهم في خطر من ذلك التفلت، فقد يحفزهم ذلك إلى العودة، خاصة إذا وجدوا من يذكّرهم.. أما إذا تفلتوا ثم جاءهم من يطمئنهم إلى كمال إيمانهم رغم تفلتهم، فمنذا الذي يجد في ضميره رغبة في العودة إلى تحمل التكاليف التي تفلت منها بسبب من الأسباب؟!

لقد كان الفكر الإرجائي نوعاً من المخدر، يوهم العصاة والمنحرفين والمقصرين والغافلين عن أداء واجباتهم أنهم بخير، وأنه لا خطر عليهم، ما داموا يصدقون في دخيلة أنفسهم أن الله واحد، وينطقون بألسنتهم لا إله إلا الله!

* * *

ثم جاء الاستبداد السياسي –الذي وقع مبكراً في حياة الأمة الإسلامية[٢]–؛ ليقتضم قضمة أخرى من مقتضيات لا إله إلا الله!

---

(١) سنتحدث في الفصل التالي عن نواقض لا إله إلا الله.

(٢) اقرأ إن شئت كتاب "كيف نكتب التاريخ الإسلامي".

إن الشمول الذي يتمثل في مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية له حكمته الواضحة في المنهج الرباني الذي أنزله العليم الحكيم، وهي أن تُحكَم الأرض بمقتضى ذلك المنهج في كل جزئية من جزئياتها (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[1].

ويعلم الله أن العدل السياسي لا يقوم في الأرض من جانب واحد -جانب الحكام-؛ لأن السلطة تُطْغِي صاحبها، إلا من رحم ربك، لذلك لم يترك الله هذا الأمر لضمير الحاكم وحده، إن شاء عدل وإن شاء طغى، وإنما جعل الأمة مسئولة عنه مسئولية مباشرة:

"لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطرا"[2].

وصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شدد في النهي عن الخروج المسلح على الحاكم المسلم المطبق لشريعة الله، إن وقع منه الجور، مخافة الفتنة التي تشق صف المسلمين وتقضي على وحدتهم، وتشغلهم عن رسالتهم العظمى في هداية البشرية، ولكنه لم يَدْعُ الناس للسكوت على الظلم، بل أنذرهم إن سكتوا عليه أن يعمهم الله بعقاب.. وقد كانت هناك بالفعل وسائل أخرى غير الخروج المسلح، اتبعت في بعض الحالات وآتت ثمارها، ومنها وقوف العلماء -ورثة الأنبياء- في وجه الظلم، وأطرهم السلاطين أطرا على الحق حتى يستقيموا عليه، ولو ذاقوا في سبيل ذلك ما ذاقوا كما حدث لابن حنبل وابن تيمية رحمهما الله، وما خبر العز بن عبد السلام ببعيد..

ولكن الأمويين اشتدوا في ضرب المعارضين لهم متذرعين بشتى المعاذير، فخوفوا "الجماهير" من "الخوض في السياسة"!

وأياً كانت معاذير بني أمية، فقد حدث ثلم في "مقتضيات لا إله إلا الله"، كانت له آثار خطيرة في مسيرة الأمة الإسلامية خلال التاريخ، حين صار الاستبداد بالسلطة كأنه أصل في حياة الحكام -إلا من رحم ربك- وتزايد بعد الأمويين لدى العباسيين ثم المماليك ثم العثمانيين، فحدث انحسار تدريجي في الشمول الرائع الذي نزلت به لا إله إلا الله من عند الله، وانحصر مفهوم "الدين" عند الناس تدريجياً في "الأمور الخاصة" بدلاً من "الأمور العامة" وفي الشعائر التعبدية وحدها بدلاً من المفهوم الشامل للعبادة..

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

نعم، حدث تركيز شديد على الشعائر التعبدية على أنها هي لب الدين، وهي مظهره العملي كذلك..

وتحالف الفكر الإرجائي والاستبداد السياسي معاً على تقليص مساحة الدين الحقيقية، وتعرية كثير من مجالات الحياة عن ظله الظليل، وبالتالي تحجيم فاعليته في واقع الحياة العملية، وترك عوامل الفساد تمرح في الأرض..

حقيقة، لقد بقي خير كثير في الأمة بالرغم من هذا كله.. ويرجع ذلك إلى ضخامة الأصل الكبير الذي كان عليه الدين في حقيقته يوم أن طبق تطبيقاً كاملاً كما أنزله الله؛ لذلك فإن كل الانحراف الذي حدث لم يستطع -بفضل الله- أن يقضي على الأمة، أو يقضي على الدين في حياة الأمة، فقد سبق في مشيئة الله أن يبقى هذا الدين إلى يوم القيامة، وأن تبقى الأمة التي تحمله مهما أصابها في الطريق من وهن.. إذ يبعث الله لها على مدى القرون من يجدد لها أمر دينها ويدعوها إلى العودة إليه..

هذا الخير الكثير الذي بقي جعل كثيراً من الناس يتغاضون عن الانحسار الذي وقع، ولكن هذا قد أدى بدوره إلى مزيد من الانحسار، في الجوانب الاجتماعية خاصة، مما استغله الغزو الفكري فيما بعد، ليقول للناس هذا هو الدين قائماً (!) ولكن الأرض مملوءة بالفساد والظلم، فلا تلتفتوا إلى الدين؛ ليصلح لكم أحوالكم، ولا ترجوا من ورائه الخير[١]!

لقد فرطت الأمة كثيراً في الأمانة التي ناطها الله بها، حين أهملت من مقتضيات لا إله إلا الله ما أهملت، وأخرجت منها ما أخرجت، وكانت نتيجة ذلك خسراناً كبيراً لا في حياتها وحدها -إذ صارت غثاء كغثاء السيل- ولكن في حياة البشرية كلها، التي ربطها الله بأحوال هذه الأمة منذ أخرجها للناس[٢].

* * *

ثم جاءت الصوفية؛ لتكمل الدائرة.. دائرة الانحسار..

---

(١) سنتحدث عن الغزو الفكري وآثاره في سياق الفصل.

(٢) اقرأ كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" للشيخ أبي الحسن الندوي. واقرأ إن شئت فصلاً بهذا العنوان في كتاب "رؤية إسلامية".

لقد كانت الصوفية –كالفكر الإرجائي– شيئاً دخيلاً على الإسلام، دين العمل والحركة في واقع الأرض، ودين المجابهة والجهاد لإقامة المنهج الرباني في عالم الواقع..

حقيقة إن الإسلام يدعو إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا؛ وسيد الزهاد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، الذي كان أمامه –لو شاء– متاع الأرض كله، فزهد فيه إلا ما يقيم الأود ويحفظ الحياة. والذي أشفقت عليه زوجه الحنون عائشة –رضي الله عنها– وهو يفترش عباءته، فأرادت أن تخفف من قساوة الأرض تحت جنبيه –صلى الله عليه وسلم–، فطبقت له العباءة طبقتين –ولا نقول وضعت له اللين من الفراش– فغضب –صلى الله عليه وسلم– وقال لها رديها كما كانت!!

نعم.. إن الزهد في متاع الحياة الدنيا، والاكتفاء منه بأقل القليل خلق إسلامي أصيل، أما بعد هذه النقطة فلا لقاء بين الزهد وبين الصوفية!

لقد كان عليه الصلاة والسلام زاهداً، فهل اعتزل الناس ليعيش في صومعته بعيداً عن معترك الحياة؟

كان زاهداً.. فهل قال لنفسه –صلى الله عليه وسلم–: دع الخلق للخالق، فإنه لو شاء لهداهم، وعليك بخاصة نفسك؟

كان زاهداً.. فهل كفّ عن الجهاد لحظة؛ لتكون كلمة الله هي العليا، داعياً مربياً، ومحارباً، وحاكماً، وراسم خطط وساعياً في الأرض بجهده كله وطاقته كلها؟!

حتى مشيئته –صلى الله عليه وسلم–، تقول كتب السيرة إنه كان يمشي كأنما يتقلع من الأرض تقلعاً..

ما أبعد سلبية الصوفية وعزلتها وتواكلها عن إيجابية الزهد وفاعليته وحركته لتغيير الواقع والارتقاء به..

إن فكرة "الفناء" –التي جاهدت من أجلها الصوفية– فكرة هندية ليست من الإسلام، وكذلك فكرة خلاص الروح بتعذيب الجسد، أو إهماله، أو إهانته..

وفكرة ترك الواقع يعج بما فيه من دنس واعتزاله للنجاة من أدرانه، وتطهير الروح من دنس الجسد بقتل الشهوات من أجل الخلاص في الآخرة فكرة مارستها الرهبانية النصرانية، وليست من الإسلام..

كيف دخل هذا الخليط كله في حياة المسلمين؟!

في الصوفية الهندية يسعى الإنسان لتحقيق الخلود، ولا يتم هذا إلا بالفناء في "النرفانا" (الروح الأعظم) والاتحاد معه. وهذا بدوره لا يتم إلا بتعذيب الجسد وإهانته؛ لتنطلق الروح من أوهاقه، وترفرف في عالم النور، وتتعطل بذلك دفعة الحياة، فلا يعد هذا خسارة ولا تبديداً للطاقة، فالحياة الدنيا دنس من جهة، ومن جهة أخرى قيد يعوّق انطلاق الروح. ومن ثم يكون تعطيلها، أو حتى قتلها- هو الكسب الذي يرتقي به الإنسان إلى الخلود، بالاتحاد مع النرفانا!

وفي النصرانية يؤمن الناس أن الإنسان خاطئ بطبعه، ولا يرجى له صلاح طالما حيويته فاعلة فيه، فتلك الحيوية ذاتها هي مكمن الشيطان. و"ملكوت الرب"[(١)] لا يمكن تحقيقه في الحياة الدنيا لكون الإنسان على هذا الطبع الخاطئ الدنس. ومن ثم يجب قتل هذه الحيوية ما أمكن للتغلب على الشيطان، والخلوص بالروح إلى الله، لتحقق ملكوت الرب في الآخرة، بالخلود مع النبيين والقديسين في عالم الصفاء الذي لا تكدره الشهوات..

وهذا وذاك ليس من الإسلام..

الخلود في النعيم -الذي هو أقصى آمال الإنسان- لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح، والجهاد لإعلاء كلمة الله:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)[(٢)].

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ

(١) يقصدون به الوضع الذي تتحقق فيه العبادة الخالصة لله والطاعة الكاملة لأوامره.

(٢) الكهف: ١٠٧-١٠٨.

سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)[1].

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[2].

والجسد وعاء الشهوات نعم، والشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم من العروق، والشهوات مطيته التي يغوى بها البشر ليخطئوا وينحرفوا عن سبيل الله..

كل هذا صحيح.. ولكن علاج الأمر -في الإسلام- لم يكن قط بقتل هذه الشهوات من منبعها، واحتقار الجسد وتعذيبه. إن الله خلق هذه الدوافع في نفس الإنسان؛ لتكون حافزة لعمارة الأرض، والقيام بدور الخلافة فيها.. فإذا قتلناهما فما الذي يحفز؟ ومن الذي يعمّر؟!

إنما علاجها في الإسلام وضع ضوابط لها تضبط منطلقها دون أن تحبسها:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3].

والضوابط هي ما أنزل الله في كتابه، وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- من حلال وحرام، ومباح وغير مباح..

فإذا التزمت أوامر الله فالدوافع -المنضبطة بالضوابط الربانية- ليست مباحة فقط، بل في إجابتها أجر:

"قال عليه الصلاة والسلام: وإن في بضع أحدكم لأجراً. قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليأتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر؟! قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر"[4].

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) آل عمران: ١٤٢.

(٣) الأعراف: ٣٢.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

وليست دنساً ولا شيئاً مستقذراً:

"حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة"[1].

إنما الدنس هو الفاحشة، أي تجاوز الحد..

وعلى ذلك فالمسلم لا يسعى إلى قتل دوافعه ليبعد عن نفسه سلطان الشيطان. إنما يلتزم بأوامر الله، وبما أحل الله له، فلا يجد الشيطان سبيلاً إليه.. وعندئذ يتحقق "ملكوت الله" في الحياة الدنيا، ولا يرجأ إلى الآخرة..

إن الإنسان خطاء.. نعم. "كل بني آدم خطاء".

ولكن ذلك لا يمنع من السعي إلى إقامة ملكوت الله -أي الالتزام بطاعة الله- في الحياة الدنيا. فهذا الإنسان -بكل ما يقع منه من خطأ وانحراف- قد كرمه الله تكريماً، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[2].

وبما وهبهم من مواهب، وما علمهم من علم، وما سخر لهم من طاقات السموات والأرض كلفهم أن يقيموا ملك الله في الأرض، أي ينفذوا أوامره ويقيموا منهجه، ويطيعوه ويعبدوه وحده بلا شريك:

(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[3].

والذين يتبعون الهدى الرباني، ويقولون "سمعنا وأطعنا" هم الذين يقيمون ملكوت الله في الأرض، ولهم الجنة في الآخرة.

---

(١) أخرجه النسائي وأحمد.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) البقرة: ٣٨.

(وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1].

وهؤلاء الذين آمنوا، وأقاموا ملكوت الله في الأرض، لا يخرجون عن بشريتهم ولا يصبحون ملائكة.. إنهم خطاءون ككل بني آدم، ولكنهم توابون:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[2].

ومن فضل الله على عباده أنه لا يطردهم من رحمته حين يخطئون، ما داموا يستغفرون ويتوبون، ولا يقول لهم إنهم غير مؤهلين –بسبب أخطائهم– لإقامة ملكوت الله في الأرض، بل يرضى عنهم ويباركهم:

(رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)[3].

تلك قضية الإنسان في الأرض كما يحددها المنهج الرباني، وهي تقتضي العمل قدر الطاقة لتحقيق ملكوت الله، والجهاد الدائم لدفع الشر وتمكين الخير في الأرض، ولا تقتضي العزلة، ولا تقتضي قتل الدوافع الحياة في نفس الإنسان.

فمن أين جاءت الصوفية بما جاءت به، وزعمت أنها تتقرب به إلى الله؟!

من أين اعتزال الناس، وترك الخلق للخالق إن شاء هداهم[4]، وقهر نوازع الحسد لتخليص الروح، والسلبية والتواكل، وجعل "العجز" فضيلة ترجى بركتها[1]!

---

(١) البقرة: ٣٩.

(٢) آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

(٣) البينة: ٨.

(٤) يقول تعالى لرسوله –صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص: ٥٦] ويقول تعالى: (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) [البقرة: ٢٧٢] ولكنه أمر رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يبذل جهده في توصيل الهدى إليهم ودعوتهم إليه، ولم يقل له اقعد أنت وأنا أهديهم إذا شئت!.

إنها كلها لَيٌّ لتعاليم الإسلام، لتتلبس بشيء دخيل على الإسلام..

وحين كانت الأزمة التي وقعت فيها الأمة الإسلامية هي الانحسار التدريجي لمقتضيات لا إله إلا الله، وبخاصة المقتضيات السياسية والاجتماعية منها، والتركيز المتزايد على الجانب الفردي وعلى الشعائر التعبدية، فقد جاءت الصوفية لتزيد الطين بلة، إذ جاءت لتؤكد هذين الجانبين بالذات، وتصرف النظر تماماً عن المقتضى السياسي، وعن "الجهاد" عامة، سواء ما كان منه متعلقاً بصدّ أعداء الإسلام، أو كان متعلقاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي ذاته..

وقدمت الصوفية في الوقت ذاته مخدراً آخر يضاف إلى المخدر الذي قدمه الفكر الإرجائي من قبل، يوهم أصحابه أنهم "واصلون" لا بالعمل ولا بالجهاد.. ولكن بالأوراد والأذكار، والأضرحة والأولياء، وبركات "الشيخ"، والخوارق والكرامات التي تتنزل –ببركة العجز– على المشايخ والأولياء!

* * *

وأخيراً نتحدث عن "الغزو الفكري" وآثاره في مقتضيات لا إله إلا الله..

ويجب أن نذكر أن الغزو الفكري كانت له جولتان اثنتان في حياة الأمة الإسلامية لا جولة واحدة..

فأما الأولى فقد جاءت والأمة في عنفوانها، نتيجة خطأ وقع فيه فريق من "مفكري" الأمة، إذا ظنوا أن الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي أداة يمكن أن تستخدم في خدمة الإسلام!

وقد كان هذا عجيباً.. ولكنه حدث على أي حال!

---

(١) عدم اعتداد الإنسان بقدرته الذاتية، ورد الأمر إلى مشيئة الله وقوته وفضله، وطلب العون منه، كلها فضائل إسلامية، ولكن الصوفية حولتها إلى قعود عن الأخذ بالأسباب، ثم التماس تحقيق المراد من رب العباد بغير عمل يعمل، بحجة العجز، أو "ببركة العجز"! بينما الله يأمر عباده أن يتوكلوا عليه التوكل الحق وفي الوقت ذاته يتخذوا الأسباب: (وَقُلِ اعْمَلُواْ..) [التوبة: ١٠٥] (وَأَعِدُّواْ لَهُم..) [الأنفال: ٦٠] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ) [الأنفال: ٣٩] (راجع الهامشة رقم ٣ ص٦٠) .

أقول كان عجيباً لأن الأمة -في حركة النقل الهائلة التي قامت بها من التراث الإغريقي لتبدأ حركتها العلمية -كانت على وعي بما ينفعها من هذا التراث وما لا ينفعها، فكانت تنتقي ما تريده انتقاء. ودليل ذلك أنها برغم كل ما ترجمته عن اليونانية لم تترجم الأساطير اليونانية الشهيرة؛ لأنها رأت فيها وثنية لا تتناسب مع عقيدة التوحيد التي آمنت بها، وعبثاً من "الآلهة" لا يليق بجلال الله الذي آمنت به.. فلم تلتفت إلى تلك الأساطير إطلاقاً، واكتفت بنقل "العلوم" فحسب..

أما المنطق والفلسفة فقد خدع فيهما فريق من "المفكرين" ظناً منهم أنها أدوات محايدة لا تخدم الوثنية بالذات، وإنما يمكن أن تستخدم لخدمة الإسلام أيضاً، وساعد على هذا أن الخلفاء العباسيين ابتدعوا بدعة سخيفة وهي أن يدعو من "متكلمي" اليهود والنصارى من يناظر "المفكرين" المسلمين، فيتكلم هؤلاء في حق الإسلام ما شاء لهم هواهم، ثم يطلب الخلفاء من المسلمين أن يردوا عليهم! ولما كان اللاهوت اليهودي واللاهوت النصراني قد استخدما المنطق والفلسفة الإغريقيين في شرح عقيدتهما، فقد رأى "المفكرون" المسلمون يومئذ أنه لا بد أن يتعلموا المنطق والفلسفة أيضاً؛ ليتمكنوا من مناظرتهم!

إنها -في نظرنا- عملية عبثية أكثر منها جادة.. فما أغنى الإسلام والمسلمين عن هذا العبث اللاهوتي، وما أغنى الدين الرباني عن وسائل لشرحه وبيانه خلاف القرآن والسنة، اللذين قال عنهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي"[1].

وأياً كان الأمر، فقد كانت البلوى التي أصابت عقيدة لا إله إلا الله من هذا العبث هي اصطناع "لاهوت إسلامي"، اشتهر في تاريخ الإسلامي باسم "علم الكلام"! ونشأة ما أطلق عليه اسم "الفرق الإسلامية" التي تصطنع تفسيراً إغريقياً فلسفياً للا إله إلا الله، ما أنزل الله به من سلطان!

ولقد بقيت البلوى محصورة على أي حال في طائفة من "المفكرين" لا تمس جمهور الأمة الذي بقي على سلامة فطرته، حتى بدأ الفساد يدب باقتطاع مقتضيات من مقتضيات لا إله إلا الله وإخراجها من الساحة، فهنا بدأت "الفرق" تجتذب إليها "جماهير" تصطنعهم

(١) أخرجه أبو داود.

لتحتمي بهم من النقد الموجه إليهم من العلماء الذين بقوا على الدين الحق والفطرة السليمة. وكان "الفكر الإرجائي" من أسوأ ما نبع من تلك الفرق واجتذب "الجماهير"!

* * *

أما أسوأ ما حدث في تاريخ الأمة فهو الغزو الفكري المعاصر..

جاء هذا الغزو والأمة في خواء لا مثيل له من قبل.. فتوغل في حياتها كما لم يتوغل شيء من قبل..

جاء وقد اقتطع من لا إله إلا الله معظم مقتضياتها، ولم يتبق منها إلا فتات متناثر لا يكون عقيدة صحيحة ولا عبادة صحيحة ولا ممارسة صحيحة.. إنما هي أقرب إلى أن تكون تقاليد –أو بقايا تقاليد– خاوية من الروح..

حتى الشعائر التعبدية التي كان "الدين" قد انحسر إليها وانحصر فيها كانت قد تحولت إلى تقاليد.. ولم يعد للدين –على شدة تمسك الناس ببقاياه المتناثرة– تلك الروح الدافعة التي كانت له يوم أن كان ديناً حقيقياً فاعلاً في شتى المجالات..

ومع هذا الانحسار كله، كان قد بقي في حياة المسلمين –كما أشرنا من قبل– أمران أخيران لم يصل إليهما الانحسار بعد، وهما تطبيق الشريعة، والصلاة، أو قل إن شئت شعائر العبادة..

وهذا هو الذي جاء الغزو الفكري ليمحوه!

وعلينا ألا ننسى أولاً أن الغزو ذاته ما جاء إلا بعد انحسار لا إله إلا الله عن مقتضياتها، سواء منه الغزو العسكري، أو السياسي، أو الاقتصادي، او الفكري.. وأنه لولا هذا الانحسار ما جرؤ الأعداء على غزو العالم الإسلامي، وقد جربوا الهزيمة المنكرة في الحروب الصليبية الأولى.

ولكنهم كانوا يتربصون..

فلما وجدوا الأمة قد أخذت تغفو –تحت خدر الفكر الإرجائي وخدر الصوفية– وبدأت تغفل عن مقتضيات دينها، فلم تعد تعدّ للأعداء من القوة ما ترهبهم به كما أمرها

الله، ولا تنشط لعمارة الأرض كما أمرها الله، ولا تطلب العلم كما أمرها الله، ولا تمشي في مناكب الأرض بحثاً عن رزق الله كما أمرها الله، ولا تسعى إلى حيازة أسباب التمكين في الأرض كما أمرها الله، ولا تمارس الأخوة فيما بينها كما أمرها الله، ولا تمارس العدل الرباني في حياتها كما أمرها الله..

عندئذ وجدوا الفرصة سانحة فلم يضيعوها.. وجاءوا بخيلهم ورجلهم فعاثوا فساداً في أرض الإسلام..

كان كل ما بقي من الإسلام هو تلك البقايا المتناثرة التي أشرنا إليها من قبل، ولكن الأعداء لم يكونوا ليحسوا بالطمأنينة مع بقاء ذلك الفتات المتناثر، فهم يعرفون هذا الدين جيداً، ويعرفون ماذا يمكن أن يحدث لو بقي أي جزء منه فاعلاً في الأرض:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ..)[1].

إن أشد ما يفزعهم من هذا الدين -كما قال المستشرق جب- هو قدرته على الانبعاث فجأة من حيث لا يحتسب أحد!

فإذا بقيت الشريعة مطبقة، وبقيت الشعائر التعبدية، فقد بقيت "الجرثومة" التي يمكن أن تنشط فجأة بغير سابق إنذار!

لا بد إذن من القضاء على تلك البقية الباقية من الدين، حتى وإن كانت ظلاً باهتاً لحقيقة الدين!

وعمل الأعداء -بكل ما أوتوا من كيد وجهد- لإزالة هذه البقايا عن طريق الغزو الفكري، في القاهرة واسطنبول خاصة، مع حرصهم في الوقت ذاته على إزالة "الدولة" التي يلتف المسلمون حولها باعتبارها "دولة الإسلام".

ولم يكن الأمر أمامهم سهلاً، ولكنه كان أسهل بكثير مما كان يمكن أن يحدث لو أن الأمة كانت على وعيها السابق بحقيقة دينها، وتطبيق صحيح لما تعيه من أمر هذا الدين..

(١) البقرة: ١٤٦.

عندئذ كان من المستحيل على الصليبية والصهيونية مهما خططا أن يصلا إلى شيء مما يهدفون له، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لأن الله قرر ذلك في محكم كتابه:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)[1].

ولكنهم استطاعوا في خلال قرن واحد أن يفعلوا بهذه الأمة ما عجزوا عنه خلال اثني عشر قرناً من الزمان.. وذلك بسبب ما كانت تعانيه الأمة من الخواء من حقيقة الإسلام.. الخواء من مقتضيات لا إله إلا الله..

كان هجومهم كاسحاً في جميع الميادين.. وكان نجاحهم كاسحاً في جميع الميادين..

ويعجب الإنسان حين يراجع تاريخ القرن الماشي كيف تغير حال الأمة هذا التغير المفزع في قرن واحد، حتى لكأنها أمة أخرى غير التي كانت.. ولكن جزءاً من هذا العجب –على الأقل– يزول، حين يعلم الإنسان كيف كان حال الأمة قبل أن تمسخ هذا المسخ الأخير.. إنها لم تكن "الأمة الإسلامية" التي أخرجها الله؛ لتكون "خير أمة".. إنما كانت "بقايا أمة".. كانت بحق ذلك "الرجل المريض" الذي يتربص مَنْ حوله أن يلفظ أنفاسه الأخيرة..

وقد كان هذا الواقع السيئ ذاته سنداً لدعاة الغزو الفكري يضللون به الناس. يقولون لهم: إن الدين هو الذي أوصلكم إلى هذا الحال البئيس.. فانبذوه، لتتحرروا، وتتقدموا، وتنطلقوا في كل مجال..

وكذبوا.. فما كان دين الله إلا عزاً وكرامة وقوة وعلماً وأخلاقاً وتقدماً وتمكيناً في الأرض..

وإنما الذي كان موجوداً في الأرض هو ما شوهه البشر من دين الله، فلا عجب أن يكون تأخراً وضعفاً وزراية وانتكاساً.. ولكن الناس في ذلك الحين لم يكونوا على وعي بما يدور حولهم.. لا هم على وعي بأن ما يحرصون عليه ويتمسكون به ليس هو دين الله الحق، ولا هم على وعي بأن ما يُدْعَوْن إليه هو مخطط أعدائهم للقضاء الأخير عليهم، لا لإحيائهم من الموت الذي كان وشيكاً أن يلحق بهم..

---

(١) آل عمران: ١٢٠.

وسواء كان الدعاة الأوائل إلى التغريب مخلصين في دعوتهم أو غير مخلصين[1]، فقد كانت النتيجة العملية واحدة، ذلك أن العميل المستَغْفَل يؤدي للأعداء ذات الخدمة التي يؤديها العميل المأجور، إن لم يكن أخطر في الواقع من العميل المأجور، لأن الناس يخدعون بطيبته الظاهرة، فيظنون أن الدعوة التي يدعوهم إليها هي طريق الخلاص.

دعا الدعاة إلى التغيير الشامل في كل شيء.. العادات والتقاليد والأفكار والنظم، والصورة والمضمون!

وفي بدء الأمر لم يكونوا يجرءون بطبيعة الحال أن يهاجموا الإسلام جهرة -ولو كانوا عملاء مأجورين، لأن الجماهير المستمسكة ببقايا الدين كان يمكن أن تفتك بهم حين ترى منهم هجوماً صريحاً على الدين.

أما مهاجمة "التقاليد البالية" فأمر ممكن.. وكذلك مهاجمة التخلف والرجعية والجهل والمرض.. وربط ذلك كله بجمود "رجال الدين"!

هكذا كانت نقطة البدء.. ولكنها لم تكن إلا نقطة بدء! أما ما بعد ذلك فقد وصل الأمر إلى الهجوم العلني، وإلى الهجوم المقذع في بعض الأحيان[2]!

قامت الدعوة إلى "تحرير المرأة" بمعنى السفور وخلع الحجاب، والدعوة إلى إلغاء الشريعة، وحصرها -على الأكثر- في قانون الأحوال الشخصية، والدعوة إلى إلغاء التعليم الديني أو تقليصه في أضيق الحدود، والدعوة إلى إقرار الربا أساساً لإدارة العمليات الاقتصادية، والدعوة إلى تغيير الزي سواء للرجال أو النساء.. والدعوة عموماً إلى إلغاء كل مظهر من مظاهر

---

(١) لم يكونوا كلهم عملاء مأجورين —سواء كان الأجر مالاً أو شهرة أو منصباً أو شهوات دنسة — وإنما كان بعضهم مخلصاً بمعنى أنه يظن حقيقة أنه يخدم بلاده ويخدم إسلامه بهذه الدعوات، ولكنهم — جميعاً- كانوا منهزمين روحياً أمام التفوق المادي الغربي، فأرادوا إخضاع الإسلام لمفاهيم الغرب..

(٢) في أوائل الستينيات الميلادية نشر صلاح جاهين في صحيفة الأهرام المصرية رسماً "كاريكاتورياً" يشتمل على رجل بدوي يركب حماراً في وضع مقلوب أي وجهه إلى الخلف رمزاً للرجعية! وفي أسفل الصورة ديك وتسع دجاجات وعنوان الرسم "محمد أفندي زوج التسعة" والتعريض برسول الله —صلى الله عليه وسلم- وزوجاته واضح.. ومع هذا التوقح البشع فقد مر الأمر سهلاً في حماية النظام القائم يومئذ.

الحياة الإسلامية واتخاذ كل مظهر من مظاهر الحياة الغربية.. بدعوى التقدم والتحضر والقضاء على التخلف..

أما كل "مظهر" من مظاهر الحياة الإسلامية فقد سهّل الأمر على الدعاة إلى تغييره أنه كان في أغلب الأحوال "مظهراً" فحسب، دون مادة حقيقية صلبة وراء ذلك المظهر تحميه من السقوط! وأما كل "مظهر" من مظاهر الحياة الغربية فقد سهّل الأمر على الداعين إليه أنه مجرد تقليد، وليس صبغة حقيقية.. وما أسهل التقليد!

لا الذي قضوا عليه كان حقيقة الإسلام، ولا الذي مارسوه كان حقيقة ما عند الغرب!

لقد كان عند الغرب فساد كبير في كثير من مجالات الحياة، ولكن كان عندهم على الأقل تقدم علمي وتكنولوجي وتنظيمي، وجلد على العمل، ومثابرة طويلة النفس للوصول إلى الغاية المطلوبة.. فهل تعلم أولئك الدعاة شيئاً من ذلك أو كانوا قادرين على تعلمه؟ وهل كانوا من باب أولى قادرين على تعليمه للآخرين؟.. إنما الذي تعلمه هؤلاء وعلموه للناس كان قشوراً من كل شيء نافع.. أما الفساد فكله بلا تحفظ ولا تباطؤ.. وبإتقان!

ألا ما أتفه العبيد! وما أصغر هممهم! وما أضيع "النهضة" التي قاموا بها ليعالجوا أمراض العالم الإسلامي..!

لقد كان الأمر في حاجة إلى بعث إسلامي جديد، يجدد للناس أمر دينهم، ويردهم إلى الجادة التي تركوها أو ضلوا عنها.. ولكن الموجودين في الساحة يومئذ -إلا من رحم ربك- لم يكونوا قادرين على ذلك، فهم إما "متدينون" على الصورة التي وصفناها من الانحراف عن حقيقة لا إله إلا الله ومقتضياتها، وإما منسلخون من الدين، منجرفون في تيار التغريب، يركضون ركضاً إلى حيث يبتلعهم الضياع.. (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)[1]!

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)[2].

(١) الأعراف: ٣٠.

(٢) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

* * *

استخدمت في عملية التغريب كل الوسائل الممكنة: مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وخاصة الصحافة، ثم المسرح والسينما، و"المرأة المتحررة"، والشواطئ العارية، والمدارس التنصيرية، واستقدام "الفرق" التمثيلية، والغنائية، والراقصة.. وترجمة الآداب الغربية، ونشر الفكر الدارويني "التطوري"، والدعوة إلى الاختلاط، والدعوة إلى القومية والوطنية بدلاً من الاجتماع تحت راية الإسلام، و...

وفي خلال قرن واحد لم تعد تستطيع أن تميز بين المسلم وغير المسلم في شيء من مظهره ولا مخبره.. إلا في شيء واحد: أن "الخواجات" أصلاء في فنهم، و"المسلمون!" مقلدون!

وإذا كان محور حديثنا في هذه العجالة هو لا إله إلا الله ومقتضياتها، فقد ذكرنا من قبل أن مقتضيات لا إله إلا الله كانت قد انحسرت في نفوس المسلمين انحساراً شديداً في الفترة الأخيرة، وتحولت إلى تقاليد خاوية من الروح، ولكن كان قد بقي على الرغم من ذلك الانحسار كله حاجز أخير وقفت عنده الأمة الإسلامية مدة طويلة، هو التحاكم إلى شريعة الله، وإقامة الصلاة.. وقلنا: إن هذا هو الذي جاء الأعداء؛ ليمحوه من حياة المسلمين، لكي يقضوا القضاء الأخير على الإسلام، ثم لا تقوم له قائمة بعد ذلك في الأرض..

فأما الشريعة فقد اتخذوا لها الوسائل الكفيلة في نظرهم بالقضاء عليها.

فقد أحدثوا بادئ ذي بدء واقعاً عملياً لا تحكمه الشريعة.. إذ ألغوا المحاكم التي تحكم بالشريعة في الأحوال المدنية والأحوال الجنائية.. ولم يبقوا إلا محاكم الأحوال الشخصية، وأطلقوا عليها وحدها اسم "المحاكم الشرعية" واستحدثوا محاكم بديلة تحكم في الأحوال المدنية والأحوال الجنائية بالقانون الوضعي، وفرض هذا على الناس فرضاً بقوة الاحتلال العسكري الصليبي. ولم يكتفوا بذلك، بل كتموا صوت الاحتجاج من ناحية، وأفهموا الناس من ناحية أخرى أن هذا هو "التقدم" الذي يجعلنا "مثل أوربا"! وهل يتطلع المهزومون –روحياً وعسكرياً– إلى أبعد من أن يكونوا "مثل أوربا" في شيء من الأشياء؟! ثم راحوا من جهة ثالثة يتهمون الشريعة بالقصور والتخلف، والجمود عن ملاحقة "تطورات العصر"!

وأما الصلاة –والشعائر كلها– فقد سلطوا على الناس ما يصرفهم عنها..

السخرية الدائمة -في القصة والمسرح والسينما[1]- من شخصية "المتدين"، أي الذي يؤدي الشعائر (!)، من غفلته وسذاجته وانغلاق فكره أحياناً، ومن نفاقه وخبثه وسوء طويته -مع مظهره المتدين- أحياناً! والنشر المتعمد للفساد الخلقي بكل وسائل النشر بما فيها الصحافة والقصة والمسرح والسينما والشواطئ العارية، والإلحاح الدائم على ضرورة "التطور" و"التحرر" وتحطيم "التقاليد البالية" والانعتاق من "الأغلال"، وتنشئة أجيال من الناس تنظر إلى الصلاة على أنها من سمات أقوام غبرت ولن تعود!!

وحين تم هذا كله، خلال قرن من الزمان، فماذا كان قد بقي من لا إله إلا الله؟

وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي بعدها، فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن نقضا الصلاة"[2].

(١) لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد، فلما ظهر قام بدوره على "أعلى" مستوى!

(٢) رواه الإمام أحمد.

نواقض لا إله إلا الله

لست أدري لماذا كان حديثنا عن "نواقض الوضوء" أضعاف أضعاف حديثنا عن "نواقض لا إله إلا الله"..!

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى ذلك، فيجب أن نسجل –للحق– أن من العلماء من أمثال ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله من تحدثوا كثيراً في نواقض لا إله إلا الله، سواء من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب، فلم يتركوا جانباً من جوانبها إلا شملوه بالشرح والبيان..

وإذا كان الفقهاء القدامى لم يواجهوا من المشكلة ما يواجهه الجيل المعاصر، لأن نقض لا إله إلا الله في الأجيال الأولى كان أمراً نادر الحدوث، وكان يقابل بالعقوبة التي قررها الله لمن يرتد عن دينه، فقد اشتد الأمر في القرن الأخير خاصة، وصارت القضية في حاجة إلى تذكير وبيان..

وقد أوضحت من قبل –في كتاب "واقعنا المعاصر" وكتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح"– أننا لا نهدف من الحديث عن نواقض لا إله إلا الله إلى إصدار أحكام على الناس.. فهذه ليست مهمتنا. إنما مهمتنا هي تعليم الناس ما جهلوه من مقتضيات لا إله إلا الله، لأنهم إن لم يتعلموا ذلك فكيف يغيرون ما بأنفسهم لكي يغيّر الله لهم ما هم فيه؟

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[1].

ولن يغير الناس شيئاً مما بأنفسهم إن ظلوا يظنون –مع الفكر الإرجائي– أنهم عاملون بمقتضى لا إله إلا الله، ما داموا يؤمنون في دخيلة أنفسهم أن الله واحد، وينطقون بألسنتهم لا إله إلا الله!

والذين يكرهون الحديث في نواقض لا إله إلا الله ليسوا فريقاً واحداً من الناس!

فالمتفلتون من مقتضياتها، المرتدون عن حقيقتها، يكرهون أن يكتشفوا لأنفسهم، أو يكتشف الناس عنهم أنهم قد ارتدوا عنها!

---

(١) الرعد:١١.

ما زلت أذكر مرة -وشر البلية ما يضحك!- أنني حين أخرجت كتاب "هل نحن مسلمون" في فترة سابقة[1]، زارني شاب في مقتبل عمره وقال لي: سمعت أنك أخرجت كتاباً بعنوان "هل نحن مسلمون"، وأنا أرغب في قراءته، فهل يمكن أن تعيرني نسخة لأقرأها؟! فقلت له: عن طيب خاطر! وأعطيته نسخة من الكتاب. وإذا به بعد أيام قليلة يعيدها إليّ قائلاً: خذ يا "عم" كتابك! لا أريد أن أقرأه! فقد كنت أحسب نفسي مسلماً قبل قراءته! فلما قرأت بعضه خشيت ألا أكون مسلماً فخذ كتابك، ودعني على ظني بأنني مسلم!

وعلى الرغم من سذاجة هذا الشاب وغفلته، وبعد تصرفه هذا عن الصواب، وعن الجد الواجب لهذا الدين، فإنه ليس وحده الذي يصنع ذلك، بل مئات وألوف.. يفرون من مواجهة حقيقة أنفسهم، ويكرهون أن يذكّرهم أحد بها، ويدفنون رءوسهم في الرمال! رمال الفكر الإرجائي المخدر!

أما الخبثاء منهم، فهم يعرفون حقيقة موقفهم من لا إله إلا الله، ويعرفون أنهم من أعدائها، وممن يسعون إلى هدمها، ولكن يكرهون أن يكتشف الناس حقيقة ما يقومون به، ويكرهون بالذات أن يكشف الناس حقيقة عمالتهم لأعداء لا إله إلا الله من اليهود والنصارى، فيكرهون من ثم الأضواء الكاشفة التي تبين حقيقتهم، ويهبّون في وجه حامليها كالكلاب المسعورة، يتهمونهم "بالتطرف"، وبكل منفّر من الصفات.. لعلهم يدارون أنفسهم في الظلام!

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)[2].

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٣٨٠هـ، ١٩٥٩م..

(٢) البقرة: ٨-١٦.

وثمة فريق آخر من "علماء السوء" الذين يريدون أن يعيشوا، ويأكلوا، ويتمتعوا، ويخافوا أن يضيع هذا كله إن قالوا كلاماً يغضب من تغضبه حقائق لا إله إلا الله! وهؤلاء قال الله فيهم:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1].

وفريق ثالث من "الطيبين" الذين لا يحبون أن يغضب الناس منهم لو واجهوهم بحقيقة أمرهم، فيربتون على انحرافاتهم، ويحسبون أن ذلك أجدى في دعوتهم إلى الله، وأرجى أن يستجيبوا للدعوة، وأن ذلك هو مقتضى "الحكمة والموعظة الحسنة" التي أمر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم– أن يدعو بها حين قال له سبحانه وتعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)[2]، وينسون أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهو أعلم البشر بمراد ربه، وأشدهم طاعة لأمره –قد قال لقريش من الكلام ما جعلها تقول: إن محمداً قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا!

ونحن على أي حال –كما أسلفنا مراراً– لا نصدر أحكاماً على أحد بعينه، وليس من هدفنا ذلك، إنما هدفنا الذي نشعر أنه أمانة في أعناقنا، وأن الله سيحاسبنا عليه يوم القيامة إن لم نقم بأدائه، أن نبين للناس الحقائق؛ ليعرفوا أين هم من دين الله، وليصحح موقفه من شاء الله أن يهديه منهم إلى سواء السبيل..

* * *

يحسب كثير من الناس –بتأثير الفكر الإرجائي– أن لا إله إلا الله إذا قيلت تظل لاصقة بصاحبها عمره كله، لا تسقط عنه مهما قال ومهما فعل، إلا أن يأتي عملاً واحداً معيناً، هو أن يعلن بملء فيه أنه كفر بالله ورسوله، وكفر بما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم–!!

---

(١) البقرة: ١٧٤.

(٢) النحل: ١٢٥.

وبطبيعة الحال فلن يصنع ذلك إنسان في رأسه ذرة من عقل -مهما كان كفره وإلحاده- إلا إذا تحلل المجتمع بحيث يأمن الكافر أن يصرح بكفره على رءوس الأشهاد دون أن يناله أذى من الناس..

فإذا لم ينطق بفمه كلمة الكفر فهو مؤمن! وكل ما يقوم به معاص مغفورة في الفكر الإرجائي، لأن أصحابه يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية!

ولسنا هنا نناقش قضية إخراج العمل من مسمى الإيمان في الفكر الإرجائي، الذي يناقض مناقضة صريحة قول السلف: إن الإيمان قول وعمل. إنما نناقش قضية أسوأ من ذلك، هي الظن بأن لا إله إلا الله لا تنتقض إلا بالنطق الصريح بكلمة الكفر.

يقول الإمام حسن البنا رحمه الله في البند الأخير من رسالة التعاليم "لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض، برأي أو معصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً إلا الكفر".

وهو في تلك المقالة ملتزم -رحمه الله- بقول السلف في الإيمان، وما يستتبعه من لزوم العمل بمقتضيات لا إله إلا الله، ومذكّر بأن هناك نواقض للا إله إلا الله يمكن أن تنقضها من أصولها، ولو نطق بها الإنسان بفمه، وادعى أنه من أشد الناس إيماناً بها!!

إن الإيمان لم يكن قط دعوى، ولا حتى في الحياة الدنيا كما يتوهم بعض الناس، أو كثير من الناس!

وحديث "هلاّ شققت عن قلبه" الذي يحتج به المرجئة لا يعطي الدلالة التي أرادوا أن يستمدوها منه، إنما هو -كما قلت في كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح"- يرفع السيف عمن قالها صادقاً أو كاذباً، فلا يجوز أن يقتل إنسان قال بفمه لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولو قالها متعوذاً دون أن يؤمن بها في دخيلة نفسه.. بل لا يجوز أن يقتل بعد أن يقولها ولو كنا متأكدين في دخيلة أنفسنا أنه لا يؤمن بها في الحقيقة!

نعم! ولكنها لا تعطيه صفة الإسلام إلى الأبد دون عمل بمقتضياتها! وهنا موضع الخلاف مع الذين يظنون أنها تلصق به عمره كله!

لو قالها، ورفع السيف عنه، وأعطى صفة الإسلام، ثم حان وقت أول صلاة مفروضة (أي بعد ساعات على الأكثر من نطقه بها) فدعي إلى الصلاة فأبى.. فما حكمه؟! وإذا طبق عليه حد الردة –وهو حكم الله فيه[1]– فقال عند تنفيذ الحد: لقد قلت لا إله إلا الله محمد رسول الله! فهل تنفعه؟ هل ترفع عنه السيف في المرة الثانية إلا أن يلتزم بمقتضى لا إله إلا الله، فيؤدي الصلاة ولو نفاقاً أمام الناس؟!

إن هذا هو الذي يفسر قتال أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– للمرتدين الذين كانوا يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ولكنهم نكلوا عن مقتضى واحد من مقتضيات لا إله إلا الله، وهو الزكاة..

وحين سأله عمر –رضي الله عنه–: كيف تقاتل قوماً يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: من قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحقها؟ ذكّره الصديق –رضي الله عنه– بأن الزكاة حق المال. وقال: والله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة. فقال عمر رضي الله عنه: والله ما إن رأيت أبا بكر قد شرح الله صدره للقتال حتى عرفت أنه الحق.

لقد نقض أولئك لا إله إلا الله، بواحد من نواقضها، وهو إنكار معلوم من الدين بالضرورة، فلم تعد تنفعهم، ولا تحميهم، ولا تعطيهم صفة الإسلام، وهم لم يكفوا عن النطق بها خمس مرات في اليوم والليلة على أقل تقدير!

ونعود إلى الحديث عن نواقض لا إله إلا الله..

فأما النطق بكلمة الكفر فلا يحتاج إلى ذكر، فلا أحد يناقش في أمره ولا حتى المرجئة.. وإن كان الظن أنهم لو وجدوا إنساناً ينطق بكلمة الكفر الصريحة فسيقولون له: لا يا شيخ! ليس من المعقول أنك تقصد ما تقول بهذه الكلمة! لا بد أنك تقصد شيئاً آخر!..

---

(١) هناك خلاف فقهي قديم بالنسبة لتارك الصلاة، هل يقتل حداً أم يقتل كفراً، ولكن –كما يقول ابن تيمية رحمه الله– لا يوجد إنسان في قلبه ذرة إيمان يتعرض للقتل بسبب تركه للصلاة (بعد حبسه ثلاثة أيام ومحاولة استتابته) ثم يبقى مصراً على عدم الصلاة، إلا إذا كان كافراً كفراً لا شك فيه! واعتقد أن هذا –في الواقع العملي– يحسم الخلاف النظري حول تارك الصلاة المتعمد المصرّ!

وأما الإتيان بأعمال لا يأتيها إلا الكافر، فقد عدد الفقهاء منها: السجود للصنم، وسب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وإهانة المصحف، والتحليل والتحريم من دون الله..

وكلها إلا الأخيرة موضع اتفاق بين كل الناس في القديم والحديث، لأنها أوضح من أن تكون فيها شبهة لصاحب شبهة..

أما التحليل والتحريم من دونه الله -أي التشريع بغير ما أنزل الله- فالجدل فيه هو آفة هذا العصر..

يحتجون بقول ابن عباس -رضي الله عنه-: إنه كفر دون كفر.. ليس الكفر الذي يخرج من الملة!

وقد ناقشت ذلك في أكثر من موضع في "واقعنا المعاصر" و"مفاهيم ينبغي أن تصحح"، ولا بأس هنا من كلمة سريعة:

لما قال الناس لابن عباس -رضي الله عنه-: إن هؤلاء -يقصدون الأمويين- يحكمون بغير ما أنزل الله، فما القول فيهم؟ قال قولته الشهيرة: إنه كفر دون كفر.. إنه ليس الكفر الذي تعلمون.. كفر لا يخرج من الملة..

وصدق ابن عباس -رضي الله عنه-، فما قال أحد عن الأمويين- بسبب ظلمهم وجورهم ومخالفاتهم: إنهم كفار!

ولكن السر في ذلك لم يكن إبطال مفعول الآية القرآنية الكريمة (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1].. معاذ الله أن يصدر ذلك عن ابن عباس -رضي الله عنه- ولا تأويلها على أنها نزلت في حق بني إسرائيل وحدهم بينما لفظها عام وشامل: " وَمَن لَّمْ يَحْكُم.." أي كل من لم يحكم.. ولا أي تعلة من هذه التعلات التي يراد بها صرف تلك الآية المحكمة عن ظاهرها..

إنما كان الأمر أن بني أمية لم يبطلوا العمل بشريعة الله، ولم يناقشوها، ولم يناقضوها، ولم يقولوا: إن المخالفات التي يقعون فيها تشريع مضاه لشرع الله، أو مقدم على شرع الله، أو

(١) المائدة: ٤٤.

أكثر تناسباً مع الظروف من شرع الله.. إنما هم فقط خالفوها في التطبيق العملي، كما يخالف السارق والزاني أمر الله، ولا يكفر بذلك، لأنه لم يجعل السرقة تشريعاً، ولم يجعل الزنا تشريعاً، أي لم يبحهما بالتشريع، ولم يقل: إنه لا عقوبة عليهما أو إن لهما عقوبة غير التي شرعها الله.. ولو قال ذلك لكفر ولو لم يسرق ولم يزن ولم يفكر في حياته كلها في السرقة أو الزنا..!

ليست القضية إذن في كفر من لم يحكم بما أنزل الله متعلقة بالعمل الذي قام به مخالفاً لأمر الله، فهذا قد يكون معصية وقد يكون كفراً، إنما هي متعلقة باستحلال ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، أي متعلقة بالتشريع.. بالتحليل والتحريم من دون الله:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ)[1].

فالذي جعل المشركين مشركين –كما أشرنا من قبل– لم يكن عملاً بالجوارح قاموا به، إنما كان تشريعاً شرعوه من دون الله، أباحوا فيه شيئاً حرمه الله، أو حرموا فيه شيئاً أحله الله، فجعلوا من أنفسهم أنداداً لله، كأنهم قالوا: لقد قال الله كذا ولكنا نقول غير ما قال، ونحكم في الأمر بغير ما قرر الله.. وهذا هو "الحكم" الذي يكفر صاحبه حين يقوم به، سواء مارسه في عالم الواقع، أم لم يمارسه.

إذا اتضح ذلك فقد سقطت محاولة الذين يريدون أن يحتجوا بقول ابن عباس –رضي الله عنه–، ليجعلوه منطبقاً على التشريع بغير ما أنزل الله، وهو أمر لا يمكن أن يصدر عن ابن عباس –رضي الله عنه–، لأنه مخالف لصريح الكتاب:

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ)[2].

إنما التبس الأمر على بعض المسلمين حين هالتهم بعض تصرفات بني أمية التي يخالفون بها أمر الله، فظنوا أنها تصرفات تخرجهم من الإسلام، فبين لهم ابن عباس –رضي الله عنه– أن أمر الأمويين لم يصل إلى هذا الحد، لأنهم لم يشرعوا تشريعاً مخالفاً لشرع الله، فيكفروا بذلك كفراً مخرجاً من الملة، إنما هم فقط خالفوا أوامر الله متأولين، أو غير متأولين، فأصبحوا

(١) النحل: ٣٥.

(٢) الشورى: ٢١.

بذلك عصاة، ولكنهم مسلمون.. بعبارة أخرى إنهم لم ينقضوا لا إله إلا الله باتخاذ شريعة غير شريعة الله، فكان عملهم معصية، سماها ابن عباس -رضي الله عنه- "كفراً دون كفر"..

أما حين وقع التشريع بغير ما أنزل الله، وهو لم يقع -قبل القرن الأخير- إلا مرة واحدة أيام التتار حين حكموا "بالياسق" بدلاً من شريعة الله، فقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)، قال ما نصه:

"ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التي يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير"[1].

ولم يكن الفارق بين عملهم وعمل بني أمية متعلقاً "بحجم" المخالفة عند هؤلاء وهؤلاء، إنما كان متعلقاً "بنوع" المخالفة، فكانت مرة عصياناً في التطبيق، وفي المرة الأخرى تشريعاً بغير ما أنزل الله.

* * *

إذا اتضح الأمر بهذه الصورة، وتبين أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقض للا إله إلا الله، فقد بقي أن نعرف أن الرضا -مع العلم- بتشريع مخالف لما أنزل الله، هو كذلك ناقض للا إله إلا الله:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٨.

بَعِيداً[1])... (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)[2].

"ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن. ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[3].

"إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون. فمن دره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع"[4].

والقضية في أصلها واحدة، وإن كانت ذات وجهين متقابلين..

فإذا كان الذين يشرعون بغير ما أنزل الله قد نقضوا لا إله إلا الله، لأنهم جعلوا من أنفسهم أنداداً لله، الله يقول وهم يقولون غير ما قال، والله يحكم في الشيء فيحلله، أو يحرمه، وهم يحكمون حكماً غيره، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله.. إذا كانوا هم قد نقضوا لا إله إلا الله بصنيعهم هذا، فالذين يرضون هذا الصنيع ويتبعونه قد جعلوا من هؤلاء المشرعين أنداداً لله، فنقضوا بذلك لا إله إلا الله، التي تقضي بأنه لا أنداد له سبحانه ولا شركاء. ذلك بأنهم كأنهم قالوا: لقد قال الله وقال هؤلاء غير ما قال الله، ونحن ارتضينا ما قاله هؤلاء من دون الله. وقد حكم الله فأحل وحرم، وحكم هؤلاء فحرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وقد ارتضينا نحن حكمهم واتبعناه!

وليس كلهم بالطبع يقول ذلك.. فمنهم من يقول: كنا نظن أن للحاكم أن يبطل العمل بالشريعة إذا اقتضت الظروف ذلك! ومنهم من يقول: كنا نظن أن للحاكم أن يغير الأحكام؛ لتناسب الظروف! وأن هذا من "الاجتهاد" المباح له!! ومنهم من يقول: إن

---

(١) النساء: ٦٠.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

الحاكم "مضطر" أن يصنع ذلك؛ لأنه لا يملك القوة التي يواجه بها أعداء الإسلام.. ومنهم.. ومنهم[(١)]..

ولسنا هنا بصدد "فرز" هذه الظنون، والبحث في أيها يُقْبَل عذراً عند الله وأيها لا يقبل، لأننا لسنا بصدد الحكم على قائليها.. إنما هدفنا كما قلت أن نبين للناس الحقيقة، ليتخذوا على ضوئها مواقفهم..

والحقيقة التي تتبين من الكتاب والسنة أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقض للا إله إلا الله، وأن الرضا بشرع غير شرع الله ناقض للا إله إلا الله، وأن أضعف الإيمان في هذه القضية هو المجاهدة بالقلب "ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن" وقد يكون -مع إيمانه- آثماً، إذا كان في وسعه المجاهدة بما هو أكثر من ذلك ولم يفعل، ولكنه رغم تقصيره لا يخرج من دائرة الإيمان ما دام يجاهد بقلبه. وأن الإنكار بالقلب -الذي هو أضعف الإيمان- ليس معناه أن يرفع الإنسان كفيه إلى السماء ويقول: اللهم إن هذا منكر لا يرضيك، ثم ينغمس فيه! إنما مقتضاه -كما قال الغزالي- ألا يشارك الإنسان في ذلك المنكر ولا بمجرد الحضور فيه ما دام غير مقهور على الحضور فيه!

* * *

أمر آخر يتصل بقضية التشريع بغير ما أنزل الله، وهو ناقض كذلك للا إله إلا الله، هو اعتناق "مذهب" من المذاهب التي تبعد الدين عن الحياة، أو تحصره في زاوية ضيقة منها، كالشيوعية والاشتراكية والعلمانية والقومية.. والديمقراطية!

وربما لم تكن الشيوعية ولا الاشتراكية اليوم في حاجة إلى بيان بعد سقوطها "المبين" في ساحة المذاهب.. وإن كنت ما زلت أعجب لرجل -طيب مفرط في الطيبة رحمه الله- قال ذات يوم وهو في موضع قيادي من العمل الإسلامي: لا نكفر أحداً قال لا إله إلا الله ولو كان شيوعياً رحم الله القائل وغفر له..

كلا، لا تحتاج الشيوعية ولا الاشتراكية إلى بيان..

ولكن العلمانية والقومية، والديمقراطية بالذات تحتاج إلى بيان[(١)]..

---

(١) فندت هذه الأباطيل كلها في كتاب "حول تطبيق الشريعة" فليرجع إليه من أراد.

العلمانية ذات دعوى عريضة أنها لا تناقض الدين ولا تحاربه.. إنما هي فقط تفصل الدين عن السياسة!!

والدين المعزول عن السياسة، وعن حكم "المؤسسات" السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.. قد يكون أي دين إلا أن يكون هو الدين المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-! أما الدين الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- فهو الذي قال الله فيه:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[٢].

وهو الدين ذو المقتضيات التي بيناها في الفصل السابق وسميناها: المقتضى الإيماني، والمقتضى التعبدي، والمقتضى التشريعي، والمقتضى الأخلاقي، والمقتضى الفكري، والمقتضى الحضاري، والمقتضى التعبيري.. وكل "مذهب" يريد أن يحصر الدين في مقتضاه الإيماني وحده، أو مقتضاه التعبدي، أو مقتضاه الأخلاقي دون بقية المقتضيات وخاصة المقتضى التشريعي فهو مناقض للا إله إلا الله، وهو -على وجه اليقين- دين غير دين الله.. ونقول المقتضى التشريعي خاصة، لأنه أحد الجذور الرئيسية الثلاثة التي تكوّن الإيمان، والتي -حين تنقض كلها أو واحد منها- لا يبقى بعدها شيء من الإيمان[٣].

والعلمانيون أنفسهم يعلمون في دخيلة أنفسهم وهم يحاربون تطبيق الشريعة أشد الحرب أنهم يقوضون هذا الدين من أساسه، وإن ضحكوا على الناس وقالوا: نحن لا نحارب الدين، لأنهم يعلمون أنهم حين ينقضون عروة الشريعة تنتقض بعد ذلك تلقائياً بقية عرى الدين! "فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن نقضا الصلاة"[٤]!

أما القومية -وخاصة العربية- فذات بريق عند فريق من الناس، يقولون: ما التعارض بين أن يحتفظ الإنسان بقوميته ويعمل من أجلها، وأن يحتفظ بدينه ويعمل له؟ والعرب الذين يعتنقون القومية خاصة ذوو دعوى ظاهرها حق -ولكنه حق يراد به باطل- أن العرب

---

(١) ناقشت هذه المذاهب كلها تفصيلاً في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

(٢) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

(٣) راجع الفصل السابق.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

هم الذين حملوا الإسلام ونشروه في ربوع الأرض، فما الضرر في أن يكون الإنسان معتزاً بدينه ومعتزاً بعروبته؟!

وكون الإنسان عربياً، أو تركياً، أو هندياً، أو أندونيسياً، أو ما شاء الله له أن يكون مسألة تتعلق بالمولد في قوم معينين، يقطنون أرضاً معينة، ولهم لسان معين.. وتلك مسألة لا إرادة للإنسان فيها، ولا يتدخل الإسلام في شأنها، ولا يقول لأحد اقطع انتماءك إليها. وقد ظل سلمان -رضي الله عنه- يسمى في الإسلام "سلمان الفارسي"، وصهيب يسمى "صهيب الرومي" وبلال يسمى "بلال الحبشي"؛ لأن هذه الانتماءات ذاتها اصطبغت بالإسلام، فأصبحوا كلهم مسلمين، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم وأصولهم.. فلم تعد تلك الانتماءات حاجزاً يعزل أحد المسلمين عن الآخر، أو يفصله عنه، أو يثير في نفسه شيئاً يعتز به خلاف الإسلام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً)[1].

أي بكافتكم، وبكافة كل واحد منكم.. بكيانه كله لا يبقى منه شيء خارج الإسلام.. فصاروا كلهم مسلمين، يقفون كلهم تحت راية لا إله إلا الله، ويشعرون كلهم بالانتماء إلى تلك الراية الواحدة:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)[2].

فلما كانت كذلك لم يكن فيها ضير..

أما حين شغب ذلك اليهودي الخبيث؛ ليثير الفرقة والبغضاء بين الأوس والخزرج بعد أن وحد بينهما الإسلام، فقد خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهم غاضباً يقول: أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم؟! دعوها فإنها منتنة..

وهذا هو الميزان..

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) الأنبياء: ٩٢.

فما وضع قوميات اليوم في هذا الميزان؟! ألله هي؟! أللإسلام هي؟! أم لتفرقة المسلمين بعضهم عن بعض، وإثارة الفرقة والبغضاء بين بعضهم وبعض؟!

وما حكم الله في القومية التي يقول قائلها: النصراني العربي أقرب إليّ من المسلم الباكستاني؟!

ثم.. ألا يرى المسلمون أن عدوهم –حين أراد أن يفرقهم ويمزقهم؛ ليبتلعهم لقما بعد أن عجز عن ابتلاعهم وهم جميع– قد لجأ إلى إثارة النعرات القومية فيهم، فكان له ما أراد من تفريق وتمزيق وتطويق؟!

أفبعد ذلك يشك أحد في أن هذه القوميات على صورتها هذه تنقض لا إله إلا الله؟!

* * *

أما الديمقراطية فهي الفتنة الكبرى!

فتنة يقع فيها كثير من الدعاة اليوم كما وقع بعضهم في فتنة الاشتراكية من قبل..

وما عندي شك في إخلاص هؤلاء الدعاة إن شاء الله –ولا نزكيهم على الله– ولكنهم مع ذلك مخدوعون في هذه الديمقراطية يحسبونها تخدم الإسلام.. ويلتبس عليهم الأمر بسبب الشبه الظاهري بينها وبين "الشورى" التي ألزم الله بها الأمة الإسلامية، فيحسبون الإسلام والديمقراطية شيئاً واحداً، أو شيئين متجانسين يمكن مزجهما في عجينة واحدة!

وأحسب أن الذي يجذبهم إلى الديمقراطية حتى ليحسبونها هي الصورة التطبيقية لروح الإسلام، هو رقابة الأمة على الحاكم في النظام الديمقراطي ومحاسبتها له، والضمانات التي تكفلها الديمقراطية للفرد إزاء الدولة.. فإذا نظر أولئك الدعاة إلى أنفسهم في وسط النظم الاستبدادية التي تشردهم وتعذّبهم وتقتّلهم قالوا: يا ليت لنا نظاماً ديمقراطياً يحمي الدعوة ورجالها من العسف والاستبداد!

نعم! ولكن هذا لا يبرر الخديعة بالديمقراطية..

إن هناك قضية كبرى في حياة المسلم، تنطلق من عقيدته، وتسري في فكره وفي سلوكه العملي.. تلك هي قضية "من المعبود"؟ الله أم آلهة أخرى معه، أو من دونه؟ ويتفرع عنها

قضية أخرى لا تقل عنها خطراً، ولا تقل عنها صلة بأصل الإيمان.. تلك هي قضية "من المشرع"؟

فأما قضية "من المعبود" فيكفي لبيانها في الديمقراطيات أن "حق" الإلحاد مكفول في دساتير تلك الأمم تحت عنوان "حرية العبادة"!

وأما قضية "من المشرع" فالواضح في الديمقراطيات أن حق التحليل والتحريم هو "للأمة" مصدر السلطات، والبرلمان الذي يمثلها، نظرياً على الأقل، بصرف النظر عن كون أصحاب رءوس الأموال هم الثقل الحقيقي وهم أصحاب السلطان من وراء "المسرحية" الجميلة، مسرحية التمثيل النيابي وحرية الاختيار وحرية التعبير[1]! ولكن إذا أخذنا بالنظرية فالبرلمان هو الهيئة التشريعية العليا، ولا معقب لحكمه ولو أباح الفاحشة –وقد أباحها– ولو أباح الفاحشة الشاذة –وقد أباحها– ولو أباح أي شيء وكل شيء؟

هنا سيقول الدعاة الذين ينادون بالديمقراطية.. لا.. لا.. إنما نقصد الشورى الإسلامية، الملتزمة بكتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، والتي تجتهد في المصالح المرسلة ملتزمة بمقاصد الشريعة..

ولا شك عندي أنهم يقصدون ذلك!

ولكني أقول لهم –مخلصاً– إن الذي ينادون به ليس هو الديمقراطية.. إنما هو الإسلام! وليس له اسم إلا الإسلام!

واسأل أي ديمقراطي "أصيل" في الأرض، قل له: نحن نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نحرم الخمر! فسيقول لك على الفور: إن هذا تدخل في الحرية الشخصية لا يجيزه الدستور! واسأله: نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نلزم المرأة بارتداء الحجاب! سيقول لك على الفور: ليس من حقك! فالحرية الشخصية مكفولة بنص الدستور! واسأله: نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نلتزم بتعاليم الدين، فنلغي الربا، ونحرم الزنا، ونمنع وسائل الإعلام من نشر الفساد والإلحاد.. سيقول لك على الفور: إن عقليتك ليست ديمقراطية.. إنه لا إلزام في الديمقراطية إلا لإرادة الشعب.. ولا تملك أن تفرض على الناس شيئاً بغير رضاهم..

(١) اقرأ إن شئت فصل "الديمقراطية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

ما الحال يومئذ، والله يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(١).

إنني أقول للدعاة الذين ينادون بالديمقراطية –مخلصاً–: إن الديمقراطية بصورتها الموجودة عليها اليوم في الأرض لن توصلهم إلى الإسلام، لأنها تعارض معارضة أساسية مبدأ الالتزام المسبق بأي شيء ولو كان من عند الله.. بل إن أول شيء نبذته هذه الديمقراطية هو الالتزام بما جاء من عند الله!

ثم أقول لهم: مخلصاً إنها لن توصلهم إلى الإسلام من جانب آخر. فإن المشرفين على "اللعبة" الديمقراطية يفتحون الأبواب لكل عابث ولكل مفسد في الأرض، ولكنهم لا يفتحونها للإسلام! وقضية الجزائر ما زالت حية لم تغب عن الذاكرة.. من حق أي فريق من البشر أن يحصل على أغلبية في البرلمان.. إلا الإسلاميين!

فلنكن صرحاء مع أنفسنا، ومع الناس.. إن الذي نريده هو الإسلام.. وليس له اسم إلا الإسلام!

ولا يحسبن أولئك الدعاة أنهم إن أخفوا "هويتهم" ولبسوا مسوح الديمقراطية فسيؤذن لهم ويمرون! كلا! إن كلاب الصيد ذات حاسة شم قوية.. تشم من بعيد!

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)(٢).

* * *

قضية أخرى في نواقض لا إله إلا الله هي موالاة أعداء الله..

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) الحجر: ٩٤.

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1].

وعلى الرغم من وضوح النص القرآني وحسمه في تلك القضية، فإن الجاهلية المعاصرة من ناحية، وكيد أعداء الإسلام للأمة الإسلامية من ناحية أخرى، قد وَهنا في حس المسلمين ما في القضية من حسم، وأوهماهم أنها كانت هكذا في الماضي لظروف معينة، وأن الظروف اليوم قد تغيرت، ولم يعد للقضية في عالم اليوم ضرورة ولا وجود.

العالمية.. الإنسانية.. القرية الواحدة..

كلما سمعت صيحة القرية الواحدة تمثلت في خاطري مشاهد البوسنة والهرسك، وما فيها من وحشية تتعفف عنها الوحوش.. ووقوف العالم كله يتفرج على المذبحة بأعصاب هادئة، بل يصر على منع عقاب المعتدي، وإتاحة الفرصة له لإبادة المسلمين! وكل هذا يحدث في داخل "القرية الواحدة"! وفي ظل "النظام العالمي الجديد"!!

كل الناس في القرية الواحدة مسموح لهم أن تكون لهم ولاءاتهم الخاصة وسماتهم الخاصة.. إلا المسلمين! هؤلاء مطلوب منهم أن يذوبوا في الكيان العام، وأن يعطوا مودتهم لكل الناس.. حتى الذين يقتّلونهم ويبقرون بطونهم ويمثلون بجثثهم ويهتكون أعراضهم.. وإلا فهم متعصبون!

والمستضعفون، المنهزمون في أعماق نفوسهم، الذائبون في مذلتهم، يتنادون: لا يطّلعنّ أحد على بادرة تعصب في تصرفاتكم، أو أفكاركم أو حتى مشاعركم! عيب! الناس أصبحوا كسكان قرية واحدة! إياكم أن تشذوا أنتم فتتهموا بالتعصب! والإسلام دين التسامح! فاعرضوا على العالم صفحة التسامح الإسلامي، لعلهم يرضون عن الإسلام!

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[2].

(وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ)[1].

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) البقرة: ١٢٠.

الإسلام دين التسامح نعم! ولكنه ليس دين المذلة..

الإسلام هو الدين الوحيد في تاريخ البشرية الذي أكرم أتباع الأديان الأخرى ولم يضطهدهم بسبب دينهم! وحين دخل أبو عبيدة الشام قال له أهلها وهم يومئذ نصارى: أنتم ولستم على ديننا أرأف بنا من أهل ديننا![2] وحين اضطهدت أوربا النصرانية اليهود وطاردتهم لم يجدوا مأوى لهم إلا الأندلس الإسلامية، ولما سقطت الأندلس رحل اليهود مع المسلمين فراراً من اضطهاد النصارى، ثم آوتهم الدولة العثمانية فانتقلوا إلى سلانيك.. وهناك عاشوا حتى ردوا الجميل للدولة العثمانية بإزالة الدولة التي آوتهم وتخريبها وتمزيقها والقضاء عليها وعلى دينها!!

الإسلام دين التسامح نعم.. ولكن في عزة المستعلي بالإيمان، المعتز بأنه هو الذي يعرف طريق الهدى ويتبعه على استقامة ولا يتبع طريق التائهين والضائعين..

والإسلام يحسن معاملة الذين لم يدخلوا فيه، ولكن بشرط ألا يكونوا معتدين:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[3].

والمسلمون اليوم مستضعفون، يتخطفهم الناس في أرجاء الأرض فلا يملكون أن يردوا عن أنفسهم.. وقد أباح الله لهم في حالة الاستضعاف ألا يظهروا العداوة لأعدائهم.. ولكنه لم يبح لهم قط أن يوالوهم.. فعدم إظهار العداوة شيء، والموالاة شيء آخر.. الموالاة التي تشمل مودة القلب، والتناصر، والمحبة.. هذه لا تكون إلا بين المؤمنين بعضهم وبعض.. (لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)[4].

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) انظر ت.و. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه، طبع القاهرة، ص٥٣.

(٣) الممتحنة: ٨-٩.

(٤) آل عمران: ٢٨.

نعم، يحذركم الله نفسه، وهو المطلع على دخائل نفوسكم، وعلى مداخل الشيطان إليها، أن يدخل إليكم من باب الاستضعاف والخوف، فيقول لكم: لا عليكم أن توالوا الكفار؛ لتأمنوهم وتصرفوا شرهم عنكم!

كلا! لا ولاء! حتى في الاستضعاف لا ولاء! إنما هو فقط عدم إظهار العداوة لهم، وعدم استفزازهم للاعتداء عليكم وأنتم لا تستطيعون رد بأسهم..

أما الولاء القلبي فغير جائز، لأنه ينقض لا إله إلا الله، ولأنه يذيب الحاجز النفسي الذي يفصل المؤمن عن أعداء الله، فيميل إليهم، فينسى دينه ويصبح مثلهم:

(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً، وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)[1].

هذا في ولاء القلب.. فكيف بالتعاون معهم، لا على البر والتقوى! ولكن على حرب الإسلام والمسلمين؟!

* * *

تلك كلها نواقض للا إله إلا الله، يقع فيها كثير من الناس في وقتنا الحاضر دون أن يدروا.. فإذا أضيف إليها ما أشرنا إليه سابقاً من نواقض العقيدة ونواقض العبادة.. من اعتقاد بأن الله قد أشرك في حكمه الأقطاب والأبدال، أو ترك لهم شئون الأرض يدبرونها بمعرفتهم! ومن توجيه ألوان من العبادة لا تنبغي لغير الله، من دعاء واستعانة واستغاثة ونذر وذبح، توجه إلى موتى لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً حتى حين كانوا من الأحياء.. أو اعتقاد بأن الخلق قد تم مصادفة بغير تدبير ولا غاية، أو أن "الطبيعة" تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق.. أو أن أمور الرياح والمطر والحر والبرد والبراكين والزلازل.. تجري حسب "قوانين الطبيعة" لا دخل فيها لإرادة الله..

---

(١) النساء: ١٣٩-١٤٠.

إذا أضفنا هذه الكومة إلى تلك فقد تجمع لدينا ركام هائل يغشّى على لا إله إلا الله، يحتاج إلى إزالة وتنقية، لتعود للا إله إلا الله شحنتها الحية الفاعلة في حياة الناس. وتلك هي المهمة الأولى للصحوة الإسلامية.

واجب الصحوة الإسلامية

تواجه الصحوة الإسلامية مهمة شاقة لم تتعرض لها "حركة إصلاحية" من قبل.. فإنه لم يتجمع مثل هذا الركام الذي تجمع اليوم في أية فترة سابقة من التاريخ، على هذا المستوى الشامل، وعلى نطاق العالم الإسلامي كله..

نعم، وجدت انحرافات كثيرة في الماضي، وأدت إلى نتائجها حسب السنن الربانية التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحداً من الخلق.. فجاء الصليبيون مرة وتوغلوا في أجزاء من العالم الإسلامي، وجاء التتار مرة وأطاحوا بالدولة الإسلامية، وضاعت الأندلس، وطرد المسلمون من أرضها.. وكانت كلها من القواصم الشديدة التي نزلت بالأمة.. ولكنها كانت -نسبياً- أخف مما هو حادث اليوم، فقد كانت تصيب جانباً من كيان الأمة دون جانب، أو مكاناً من العالم الإسلامي دون مكان.. أما اليوم فالضياع شامل سواء في كيان الأمة الإسلامية أو أنحاء العالم الإسلامي..

والسبب الظاهر في نظرنا هو موقف الأمة من لا إله إلا الله..

إن لا إله إلا الله، محمد رسول الله، هي جذور هذه الأمة التي تثبت مكانتها في الأرض:

(يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ)[1].

والقول الثابت هو شهادة التوحيد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وبقدر ما تكون الأمة واعية لمدلولها، عاملة بمقتضياتها، تكون ممكنة في الأرض؛ لأن مقتضياتها شاملة لكل أدوات التمكين التي يمكّن الله بها الأمم في الأرض، فضلاً عن كون التمكين الذي يمنحه الله للأمة المسلمة حين تقوم بمقتضيات لا إله إلا الله، هو تمكين الرضا وليس تمكين الاستدراج، الذي يمنحه الله للكافرين حين يتخذون الأدوات، ولكن بغضب من الله ومحق في نهاية المطاف:

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً)(١).

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ..)(٢).

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٣).

أما المؤمنون فأمرهم مختلف:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)(٤).

(رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)(٥).

* * *

أيا كانت الأسباب التي يفسرون بها ضعف الأمة الإسلامية وتخلفها، وزوال السلطان عنها، وذلها وهوانها على الناس.. فهي راجعة كلها إلى سبب واحد في النهاية، هو تخلف الأمة عن مقتضيات لا إله إلا الله، لأنه لا شيء من هذه الأسباب خارج عن نطاق هذه المقتضيات.

يقولون ضعف القوة العسكرية، (أو التخلف الحربي).. يقولون ضعف الاقتصاد، (أو التخلف الاقتصادي) -يقولون التخلف العلمي.. يقولون التخلف الحضاري.. يقولون

---

(١) الإسراء: ٢٠.

(٢) هود: ١٥-١٦.

(٣) الأنعام: ٤٤-٤٥.

(٤) النور: ٥٥.

(٥) البينة: ٨.

التخلف الأخلاقي.. يقولون.. يقولون، أو ليست مقتضيات لا إله إلا الله التي بيناها من قبل شاملة لهذه الجوانب كلها، سواء كانت فروض عين، أو فروض كفاية؟!

أما الانهيار الأخير للأمة فقد كان السبب فيه هو الركام الذي تراكم خلال القرون، فغشّى على مقتضيات لا إله إلا الله، وشمل فيما شمل الجذور الثلاثة الكبرى: المقتضى الإيماني، والمقتضى التعبدي، والمقتضى التشريعي.. فتهاوت الشجرة، وكادت أن تجتث من فوق الأرض لولا لطف الله..

لطف الله يتمثل في الصحوة التي بدأت ترد الأمة لحقيقة لا إله إلا الله..

هنالك كان المرض.. وهنا يكون بإذن الله الشفاء..

ولكن الصحوة كما قلنا تواجه حملاً ثقيلاً ينبغي لها أن تدرك ثقله، كما ينبغي لها أن تدرك مدى الجهد اللازم لمواجهته..

إنه ليس مقتضى واحداً وقع العجز فيه فتسهل معالجته.. وليس عند طائفة قليلة من الأمة فيسهل عليها أن تتحرك دون أن تعوق حركتها الفئة القليلة..

إنه عجز شامل، وفساد كبير.. فساد في التصور وفساد في السلوك..

إن الصحوة ليست بصدد "حركة إصلاحية" في جانب واحد من جوانب الحياة، أو بضعة جوانب بعينها.. إنما هي بصدد إعادة البناء..

وقد كانت إقامة البناء أول مرة جهداً شاقاً بذله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبذله صحابته الكرام رضوان الله عليهم معه، أما إعادة البناء.. فما أدري.. فقد تكون مهمة أشق، فقد قال رسول -صلى الله عليه وسلم- لصحابته رضوان الله عليهم: "إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم". قالوا: يا نبي الله! أوْ منهم؟! قال: "بل منكم"[١].

(١) رواه أبو داود والترمذي.

وأيا كان الجهد، وأيا كانت المشقة، فقد قامت الصحوة بفضل الله ورحمته، وهي ماضية في سبيلها حتى تحقق بإذن الله أهدافها، وتحقق موعود الله بالنصر والتمكين لأمته مرة أخرى..

ولكن عليها أن تدرك مهمتها على وجه الدقة، لتقوم بها بإذن الله على الوجه الأكمل.. وعليها ألا تستعجل الخطى، ولا تستطيل الطريق، ولا تستبطئ النصر، ولا تنخدع ببعض البشائر فتظن أن الثمرة قد حانت ولم يبق إلا القطاف..

بل بقى الجهد.. كل الجهد.. وبقى العرق والدماء والدموع.. وكل عقبات الطريق.. ثم يأتي النصر بمشيئة الله.

* * *

أول ما ينبغي للصحوة هو بيان مقتضيات لا إله إلا الله. كما أشرنا إليها في هذه العجالة السريعة..

ولا شك أن الصحوة قد قامت بجهد مشكور في هذا الاتجاه، ثمرته هي هذا الوعي الذي أخذ ينتشر عند الشباب خاصة، أن لا إله إلا الله ليست تلك الكلمة التي تنطق باللسان فحسب، وأن الإيمان قول وعمل.. عمل بمقتضيات لا إله إ الله.

ولكن الظن بأن هذه المهمة قد استوفت حقها، فهلم ننتقل إلى غيرها، ظن خادع يكذبه الواقع..

إنها لا تستوفي حقها حتى يعلم الناس علماً وافياً نواقض لا إله إلا الله:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1].

ولحكمة ما تقدم ذكر الكفر بالطاغوت قبل ذكر الإيمان بالله، لأن الإنسان إذا لم يعلم ما الطاغوت، ثم يكفر به على بصيرة، فسيظل في إيمانه دَخَل.. يظل إيمانه غير صاف ولا خالص لله.. ومن ثم لا يقوم عليه بناء سليم.

(١) البقرة: ٢٥٦.

والطاغوت متعلق بالجذور الثلاثة الكبرى: إما الاعتقاد، وإما العبادة، وإما التشريع.. فإن لم يتبين الناس جيداً نواقض لا إله إلا الله في هذه المجالات الثلاثة الكبرى، فلن يكفروا بالطاغوت كما أمر الله، ولن يخلصوا دينهم لله كما أمر الله..

فهل وصل البيان إلى غايته في هذه القضية، وما زال دعاة -ولا نقول "الجماهير"- يترددون في كثير من القضايا المتعلقة بها، والمترتبة عليها، سواء بتأثير الفكر الإرجائي، أو بتأثير الفكر الصوفي، أو بتأثير الفكر العلماني؟!

* * *

وإذا كان البيان هو الواجب الأول للصحوة الإسلامية، فإن البيان وحده لا يكفي..

نعم.. إنه بغير البيان لا يتم شيء.. وقد كانت المهمة الأولى للأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم هي البيان والبلاغ:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(١).

(... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(٢).

ولكن مهمة الأنبياء لم تقتصر على البيان الشفوي، أو التبليغي -وحده، لأن الله يعلم أن المعرفة الذهنية وحدها لا تصنع شيئاً في واقع الناس، إن ظلت قابعة في أذهانهم في صورة "معلومات"، مهما كانت هذه المعلومات قوية وعميقة وباهرة، إن لم تتحرك من الأذهان إلى القلوب فتصبح وجداناً حياً يملأ القلب، ثم تنتقل من القلوب إلى الجوارح فتصبح سلوكاً عملياً في واقع الأرض..

وتلك حقيقة الإيمان: اعتقاد ووجدان وعمل..

وهذه الحركة البناءة، التي تنقل المعلومات من الذهن إلى القلب، ثم تحولها سلوكاً واقعياً، لا تتم بالبيان الشفوي -أو التبليغي- إنما تحتاج إلى نوع آخر من البيان يقوم به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ويقوم به الدعاة من بعدهم، هو التربية.

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) النحل: ٤٤.

وليس هنا مجال بيان المنهج التربوي الذي ربى به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحابته رضوان الله عليهم، ولا المنهج الذي يجب أن يتخذه الدعاة اليوم في التربية.. فهذا مجال متخصص[١]..

ولكننا نقول في هذه العجالة أولاً: إنه لا بد من قدوة؛ فإن التربية لا تتم بغير قدوة.. وقد كان رسول -صلى الله عليه وسلم- هو القدوة لصحابته رضوان الله عليهم، وللأمة بأكملها:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)[٢].

وقد كمّله الله سبحانه وتعالى بكل الصفات البشرية التي جعلته أعظم مربٍّ في التاريخ، ولكن الأسوة فيه -صلى الله عليه وسلم-، هي بما يستطاع في حدود طاقة البشر: (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)[٣] ولكن حدها الأدنى هو الحد الأدنى من مقتضيات لا إله إلا الله!

ثم إن التربية -في أول حركة البناء- لا يمكن أن تتم على النطاق الواسع -نطاق "الجماهير"- دفعة واحدة.. إنما يتم أولاً تربية "القاعدة".. القاعدة الصلبة التي تحمل البناء، ثم تكون هذه القاعدة ذاتها هي القدوة التي تتربى عن طريقها بقية الناس. لذلك يلزم في بناء هذه القاعدة أن تكون على مستوى عالٍ يصلح للقدوة، ولا يكفي أن تكون على المستوى العادي، لأن مهمتها ليست محصورة في ذاتها، أي لا يكفي أن تتربى لتستقيم في ذات نفسها، ولكن تتربى؛ لتربي غيرها، فيجب أن تكون ذات خصائص فائقة تصلح للقدوة وتصلح للتأثير..

تلك إشارة سريعة للمهمة التي تواجه الصحوة.. البيان والتربية..

ولا بد أن تعلم الصحوة أن كلا الأمرين ليس بالأمر الهين، ولا الأمر الذي يجوز الاستعجال فيه..

---

(١) في النية إخراج بحث بعنوان "كيف ندعو الناس" أدعو الله أن يوفقني لإخراجه.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

فأما البيان –التعليمي أو التبليغي– فالعقبات أمامه هي ما رسب في حس الناس من آثار الفكر الإرجائي والفكر الصوفي ثم الفكر العلماني في القرن الأخير.. وهي رواسب كثيرة، مضنية في إزالتها، لأن كثيراً منها أخذ في حس الناس صورة "الحقائق" المسلمة، فإذا جئت تردهم إلى حقائق الكتاب والسنة كما عرفها السلف الصالح، فغر كثير من الناس أفواههم عجباً وقالوا: من أين جئتم بهذا الفكر الذي سيخرّب الدين!!

وليست هذه الرواسب وحدها هي العقبة.. فهناك "الإعلام" بشعبتيه: شعبة التشويش، أو التشويه، وشعبة الإفساد! فأما شعبة التشويش، أو التشويه فهي تقوم بالتشويش على الصحوة الإسلامية، واتهامها بالتطرف حيناً، والرجعية حيناً، والمثالية حيناً[1]، وبكل نقيصة في كل حين.. وذلك ديدن الجاهلية دائماً مع دعوة لا إله إلا الله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[2].

وأما شعبة الإفساد فهي تقوم بعمل تخريبي من نوع آخر، هو تلهية الناس عن ذكر ربهم وذكر اليوم الآخر، وشغلهم بما يدغدغ غرائزهم، فيهبطون، ثم يكرهون الصعود، ويستمرئون الحمأ الآسن، ويقاومون من يريد أن يخرجهم منه، كما تكره الديدان أن تخرج من الطين، وتقاوم من يجذبها؛ ليخرجها من الحمأ المسنون..

وأما عملية التربية فالعقبات أمامها هي الواقع المتفلت الذي عاشت فيه الأمة قرونها الأخيرة، وقد كان تفلتاً واسع المدى، لم يدع مجالاً من مجالات السلوك الإسلامي إلا دخل فيه.. فإعادة الناس إلى السلوك الإسلامي السوي، وضرورة الارتفاع –في بناء القاعدة– عن المستوى العادي إلى المستوى الفائق جهد مُضْنٍ إلى أقصى حد.. ولا بد من بذله مع ذلك..

وليس الواقع المتفلت هو العقبة الوحيدة أمام عملية التربية، بل هناك إلى جانبه عقبات..

فالقدوة ما تزال قليلة في عالمنا الإسلامي.. وفي السنوات الخمسين الماضية، أو نحوها اتجهت الحركة –متعجلة– إلى الجماهير، قبل أن تخرج العدد الكافي من المربين لتوجيه هذه الجماهير.. ونعاني اليوم معاناة ظاهرة من كثرة إقبال الشباب وقلة المربين! وعلى الصحوة في

---

(١) المثالية في عرف العلمانيين نقيصة معناها التشبث بمثل غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع!.

(٢) غافر: ٢٦.

واقعها المعاصر أن تعوض ما فاتها في نصف القرن الفائت، فتعكف بجد على تكوين المربين الذين يوفّون بحاجة العدد المتزايد من الشباب المقبل على الإسلام.. وإلا فسيصبح لدينا في الحركة الإسلامية "زبد" كثير يطفو على السطح، ثم تنفثئ فقاعاته، وتذهب جفاء مع التيار..

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ)[(١)].

وإلى جانب قلة المربين، فإن مفهوم "التربية" ذاته غير واضح تماماً في ذهن كثير ممن يقومون بعمليات التربية والتوجيه..

بعض الجماعات تهتم بالتربية "الجهادية" وحدها وتهمل بقية الجوانب، لأن الذي يشغل حسها هو المعركة الدائرة ضد الحركة الإسلامية، وضرورة التصدي لها بالجهاد المسلح لكف أذاها عن الحركة الإسلامية..

وبصرف النظر عن رأيي السابق الذي أبديته في كتاب "واقعنا المعاصر" وما زلت عنده، وهو أن هذه الجماعات تتعجل الدخول في المعركة قبل أوانها.. فإنني هنا أتحدث عن "المنهج" فأقول: إن الاقتصار على جانب واحد من جوانب التربية -سواء كان الجانب الجهادي أو غيره- مخل بعملية التربية ذاتها، ولا يبني "القاعدة الصلبة" التي لا بد من بنائها..

وبعض الجماعات تهتم بالتربية الروحية وحدها وتهمل بقية الجوانب، وخاصة السياسي منها.. ولا شك أن كل بناء لا يقوم على القاعدة الروحية فهو بناء منهار مهما ارتفع.. ولكن التربية الروحية ليست غاية في ذاتها، إنما هي وسيلة لترسيخ البناء وتعميق أسسه وتقوية أركانه.. فإذا جعلناها غاية في ذاتها، ولم نبن شيئاً فوق الأساس، فماذا نكون قد صنعنا؟!

وبعض الجماعات تهتم بالتربية العلمية وحدها، علم الكتاب وعلم السنة، وتهمل بقية الجوانب..

ولا شك أن الناحية العلمية ضرورية لبناء أية حركة إسلامية.. "فالعلم" أساس هذا الدين. وقد أقْرَأَ الله رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ ليعلمه فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

---

(١) الرعد: ١٧.

خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1] وقال له سبحانه: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[2].

ولكن العلم وحده -على الطريقة التي تقوم بها تلك الجماعات- لا يصنع شيئاً كثيراً في عالم الواقع! إنما غايته أن يخرّج "فقهاء"، أو "علماء" عالمين بأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- صحيحها وضعيفها، وبالأحكام المستمدة من الكتاب والسنة.. ولا زيادة! نسخ مكررة من أحد العلماء، أو من بعض العلماء.. ولكنها -كالكتب الجاثمة فوق الرفوف- لا تتحرك في دنيا الواقع! وإن تحركت ففي نطاق محدود لا يصلح ما في الأرض من الفساد!

وبعض الجماعات تهتم بتربية الوعي السياسي، وتهمل بقية الجوانب.. ولا شك أن الوعي السياسي ضرورة للحركة الإسلامية. وكثيراً ما تؤتى الحركة من قلة وعيها السياسي ووعيها الحركي.. فلا تدرك مدى المؤامرات التي تحاك حولها، والتي تستدرجها لاستنفاد طاقتها في أمور جانبية؛ لتشغلها عن مهمتها الكبرى في التربية، ولا تتحرك الحركة الصائبة في الوقت المناسب فتستجيب للاستفزاز فتُضرب، أو تقع في "مطب" يرسمه الأعداء..

ولكن الوعي السياسي وحده لا يكفي لبناء الحركة المطلوبة..

وتصور وجود وعي سياسي فائق عند قوم لم تصلح أخلاقهم.. مثلاً!

أو تصور وجود الوعي السياسي عند قوم لم يتجردوا لله كما ينبغي للداعية المربي..

أو تصور وجوده بغير الصبر على الابتلاء، أو بغير القدرة على توصيل الحق للناس، أو بغير "الحكمة" التي تخدم الدعوة.. فماذا يفيد ذلك الوعي، وأركان البناء كله لم تقم بعد؟!

جوانب كثيرة من التربية إما أهملتها بعض الحركات القائمة؛ لتركز على جوانب أخرى، وإما أهملتها لعدم شعورها بالحاجة إليها أصلاً في عملية التربية..

---

(١) العلق: ١-٥.

(٢) محمد: ١٩.

وقد ضربت بعض الأمثلة في كتاب "واقعنا المعاصر" لجوانب من التربية لا تأخذ حظها من العناية لعدم الشعور بالحاجة إليها، ولا بأس بذكر بعضها هنا من زاوية أنها من "مقتضيات لا إله إلا الله" التي يجب أن تتجه الصحوة الإسلامية إلى إحيائها في نفوس أتباعها..

اليقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، الضار النافع، المحيي المميت، الذي بيده الأمر كله.. كم نعطيه من اهتمامنا في التربية؟! إننا نكتفي – في الغالب– باليقين الذهني الذي يتحصل عند المؤمن في أول مراحل إيمانه.. ولكن هذا اليقين الذهني يتعرض للزلزلة عنند الابتلاء، والابتلاء سنة من سنن الله في خلقه:

(الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[1].

فكم نعنى بترسيخ هذا الإيمان، حتى يتحول من يقين ذهني إلى يقين قلبي، يملأ القلب حتى يطمئن إلى قدر الله، ويواجه الابتلاء الذي يتعرض له بيقين ثابت وقدم ثابتة لا تزلزلها الأحداث..؟

والآثار السيئة للبيئة التي يعيش معظم المسلمين في دائرتها: المنطقة الحارة، والمنطقة المعتدلة الحارة: الفوضى التي تكره النظام، والعفوية التي تكره التخطيط، وقصر النفس، الذي يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة.. تلك –كما قلت في "واقعنا المعاصر"– من آثار البيئة التي انتشر فيها الإسلام بقدر من الله.. ولكن الإسلام تسلم الناس من هذه البيئة بواقعهم ذلك فأخرج منهم "خير أمة أخرجت للناس".. فلما خفت قبضة الإسلام على قلوب الناس عادوا إلى عيوب بيئتهم: فوضويين يكرهون النظام، عفويين يكرهون التخطيط، قصار النَفَس، يشتعلون بسرعة وينطفئون بسرعة.. فكم بذلنا من الجهد لعلاج هذه العيوب التي يسمونها "حضارية" ونقول نحن: إن علاجها هو من مقتضيات لا إله إلا الله، لأن للا إله إلا الله مقتضى حضارياً يعالج هذه العيوب..

(١) العنكبوت: ١–٣.

كذلك لا بد أن نضع في قائمة العقبات القائمة في وجه التربية عنف البطش الذي تواجه به الحركات الإسلامية، والكيد الذي تقوم به الصليبية العالمية والصهيونية العالمية وعملاؤهما في العالم الإسلامي لتضييق الخناق عليها وكتم أنفاسها..

تلك كلها عقبات.. سواء أمام العملية التعليمية التبليغية أو أمام العملية التربوية..

نعم.. ولكن..؟!

هل ننفض أيدينا بسبب جسامة العقبات؟!

ومن يحمل عنا مسئوليتنا أمام الله يوم القيامة؟!

كلا! إنما علينا أن نعرف جسامة العقبات؛ لنعرف جسامة الجهد المطلوب.. فلا نستبطئ النصر، ولا نتعجل الخطى، ولا نضن بالجهد، ولا نستطيل الطريق..

ونعرف من جانب آخر أن المبشرات أكبر من العقبات!

الصحوة ذاتها آية من آيات الله، بعد كل ما أصاب الأمة من انحراف.. وكل ما كاده الأعداء من كيد..

إن الناظر إلى جسامة الانحرافات التي وقعت فيها الأمة، حتى أفرغت لا إله إلا الله من محتواها الحي كله، فأصبحت مجرد الكلمة التي تنطق باللسان.. والناظر إلى جسامة الكيد الذي كاده الأعداء للأمة الإسلامية في القرون الأخيرة، والقرن الأخير خاصة، كان يجزم أن هذه الأمة لن تعود أبداً، وأن هذا الدين قد انتهى من الأرض!

ولكن قدر الله الغالب كان عكس ذلك.. كان هو الصحوة الإسلامية!

والمسافة التي قطعتها الأمة، أو قطعتها الصحوة الإسلامية -من الخواء الميت إلى الحركة الحية، مسافة هائلة في حقيقة الأمر.. فإذا قلنا اليوم: إن الشوط ما زال بعيداً، فليس هو أبعد في حقيقته من الشوط الذي قطعته بالفعل.. وفرق بين الجهد المبذول لإيقاظ النائم من غفوته، ووضع قدميه على الطريق، وبين الجهد المطلوب لترشيد حركته، وبث مزيد من النشاط فيها..

وثمت مبشر آخر ينبغي إعطاؤه حجمه الحقيقي.. وحجمه كبير في الحقيقة..

لقد بدأت الصحوة والجاهلية الغربية في أشد عنفوانها.. مسيطرة في كل الأرض، مسلطة أنوارها الباهرة على الساحة كلها، قاهرة أعداءها، مستذلة مخالفيها.. واليوم تغير الحال كثيراً عن ذي قبل!

نصف الجاهلية قد هوى.. ومن فضل الله أن "شطأة"[1] من الصحوة الإسلامية في الجهاد الأفغاني كانت من العوامل القوية في هُوِيّ هذا القسم من الجاهلية، كما اعترف نيكسون نفسه في كتابه الأخير: "اغتنموا الفرصةSeize the Moment" وإن كان الإعلام العربي –مع الأسف– لم يعط هذه الحقيقة حظها من الإبراز، بل شارك في التعتيم العالمي على القضية الأفغانية!

أما النصف الثاني فما زالت له صولة ظاهرة.. ولكنه في الحقيقة في طريقه إلى الانهيار بما يحمل من عوامل الفساد التي لا يمكن أن يعيشها معها نظام حسب سنة الله..

وهُوِيّ الجاهلية جانب من قدر الله الغالب، لا يملك أعداء الإسلام منعه، ولا يملكون حجب آثاره عن واقع الأرض.. وواقع الإسلام!

ودخول مئات الألوف من الناس في أوربا وأمريكا في الإسلام من المبشرات.. فالكثرة الغالبة منهم من المثقفين: أطباء ومهندسون وعلماء.

ولا نقول: إن أحوال الأمة الإسلامية قد اجتذبتهم إلى الإسلام –فهذه الأحوال أجدر أن تنفرهم وتبعدهم! –إنما الذي اجتذبهم هو الإسلام ذاته، بما فيه من نصاعة الحق.. وهي تبدو اليوم أشد نصاعة كلما أوغلت الجاهلية في ظلماتها.. والجاهلية تفتح فاها عجبا– وحنقا– من أبنائها الذين يقبلون على الإسلام بعد ما جهدت تلك الجاهلية قروناً متوالية لتنفيرهم منه.. ولكنها لا تستطيع أن تمنعهم رغم حنقها عليهم –وعلى النساء من بينهم خاصة– لأنهن تحدٍّ صارخ لكل دعاوى الجاهلية ضد الإسلام!

---

(١) يقول تعالى عن المؤمنين: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وما لنا ننسى المبشر الأول والأعظم.. أن كل الكيد الوحشي الذي يكاد للإسلام، بما فيه من تقتيل وتشريد وتعذيب، كانت ثمرته مزيداً من المد الإسلامي في كل الأرض؟!

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[١].

* * *

إن الإسلام قادم..

لا نقولها نحن وحدنا.. إنما تقولها أوربا كذلك!

هم يقولونها فزعاً، ونحن نقولها فرحاً بموعود الله:

"لا تقوم الساعة حتى يقتتل المسلمون واليهود، فيقتل المسلمون اليهود، حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله!"[٢].

"إنه تكون فيكم نبوة، فتبقى في الأرض ما شاء الله لها أن تبقى ثم ترفع. ثم تكون خلافة راشدة فتبقى في الأرض ما شاء الله لها أن تبقى ثم ترفع. ثم تكون ملكاً عاضاً فيبقى في الأرض ما شاء الله أن يبقى ثم يرفع، ثم تكون ملكاً جبرية، فيبقى في الأرض ما شاء الله له أن يبقى ثم يرفع. ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة"[٣].

ولكن هذا كله يلقي على الصحوة الإسلامية تبعة ثقيلة.. إن عليها أن تعيد للا إله إلا الله في نفوس الناس شحنتها الحية التي كانت لها يوم أن كانت فاعلة في واقع الأرض..

عليها أن تنفض الركام كله الذي غشّى على لا إله إلا الله خلال قرون طويلة من التفلت والانحراف..

عليها أن تجلوها كما كانت يوم أنزلت من عند الله.. يوم أن كانت -بكل مقتضياتها- عاملة في حياة الأمة المسلمة، فكانت نوراً للبشرية كلها استضاءت به وخرجت من ظلماتها، حتى من بقى منها على دينه ولم يدخل في الإسلام..

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

وإنما لكَمَا كانت يوم أنزلت من عند الله.. محفوظة في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، تكفل الله بحفظها فحفظت..

علينا فقط أن نفتح لها قلوبنا، ونعمل بمقتضياتها..

عندئذ تقبس تلك القلوب قبسات من النور، فتصبح مشاعل تضيء للناس الطريق..

ذلك واجب الصحوة الإسلامية..

وإن قوماً ليستبطئون المسيرة يقولون: وماذا بعد لا إله إلا الله، أما آن لنا أن ننتقل إلى موضوع آخر؟!

وقد كتبت هذه الصفحات؛ لأؤكد أنه ليس هناك موضوع آخر! وأن كل موضوع يراه الناس "آخر" هو في الحقيقة من مقتضيات لا إله إلا الله، وإن بدا لأول وهلة أنه بعيد عنها.. جد بعيد!

أما الذين يقولون: دعونا من لا إله إلا الله، فقد ضجرنا من حديثها.. ودعونا نبحث عن الحلول العملية.. فنقول لهم: نحن لا نعطلكم! اعملوا! اعملوا على النحو الذي ترونه في نظركم محققاً للغاية التي تبتغونها! ولكننا على يقين من أنكم ستعودون فتصرخون في النهاية: كل جهودنا تذهب عبثاً! الناس لا مبادئ لها ولا أخلاق! يسرقون.. يغشون.. يرتشون.. يتظالمون.. يفتك بعضهم ببعض.. يقدمون مصالحهم الخاصة على "المصلحة العامة" فتذهب ثمرة الجهد كله ونعود كما كنا عند نقطة البدء.. أو أسوأ مما كنا عند نقطة البدء!

نحن -أيها الإخوة "العمليون"- لا نعطلكم عن العمل..

إنما نقول لكم بما تعلمناه من كتاب الله ومن المنهج النبوي: ابدأوا بالمقتضى الإيماني للا إله إلا الله، فربوا الناس بمقتضاه.. ثم اجعلوا أهدافكم كلها "أهدافاً إيمانية"، نابعة من لا إله إلا الله، وممتزجة في دماء الناس بلا إله إلا الله.. ثم انظروا كيف يكون الفرق في النهاية بين "حلولكم العملية" حين تمارسونها خارج لا إله إلا الله، وبين تلك الحلول ذاتها حين تكون منبعثة من لا إله إلا الله، محكومة بمقتضياتها في كل اتجاه..

ولسنا نقول لكم -كما تزعمون عنا-: دعوا المعدات خاوية، ودعوا الأرض على خرابها حتى نؤسس في قلوب الناس لا إله إلا الله!

إنما نقول لكم حقيقة واقعة، إن أعداءكم لا يريدون لهذه المعدات أن تمتلئ، ولا لهذه الأرض أن تعمر، لتظلوا مستذلين لهم خاضعين لأهوائهم ونزواتهم..

ولن ينقذكم منهم إلا أن تعودوا للا إله إلا الله، تربون أنفسكم على مقتضياتها، وتجندون أنفسكم للجهاد تحت رايتها.. وعندئذ يتغير وجه الأرض..

عندئذ ستمتلئ المعدات الخاوية حقاً، وستعمر الأرض حقاً، حين تتخذون الأسباب وقلوبكم مؤمنة بلا إله إلا الله:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)[1].

* * *

إن على الصحوة الإسلامية أن تعرف مهمتها، ولا تلتفت إلى الذين يستدرجونها؛ لتنشغل عن غايتها، بسؤالها: أين برامجكم العملية؟ أين حلولكم العملية للمشاكل؟!

إنه لا يوجد حل عملي لهذه الأمة إلا الرجوع إلى الإسلام!

إن الخيرات التي أودعها الله في الأرض التي قدّر سبحانه أن ينتشر فيها الإسلام هي أعظم خيرات على وجه الأرض. ولكنها ضاعت من أيدي المسلمين حين نكلوا عن مقتضيات لا إله إلا الله، وهي اليوم ملك لأعدائهم يستمتعون بثمارها ويحرمون المسلمين منها. ولن يستعيدها المسلمون حتى يعودوا للا إله إلا الله، بكل مقتضياتها، بدءاً بالمقتضى الإيماني، ومروراً بكل المقتضيات بعد ذلك، بما فيها الجهاد في سبيل الله.

فنحن حين نقول للناس عودوا للا إله إلا الله، فإنا ندلهم على الحل العملي الحقيقي الذي يرد لهم كيانهم، ويرفع عنهم إصرهم، ويعيد لهم التمكين في الأرض.. بشرط أن يعملوا بمقتضياتها كما أمرهم الله:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[1].

---

(١) الأعراف: ٩٦.

ورضى الأعداء، أم أبوا فإن المستقبل للإسلام!

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾(٢).

بل أكاد أقول: إن الأعداء على يقين من عودة الإسلام!

ولكن بقى "المسلمون"!

ومهمة الصحوة هي زرع هذا اليقين في قلوب الناس حتى يصبح حقيقة.. وسبيلهم أن يستنبتوا البذرة الحية من جديد.. بذرة لا إله إلا الله، محمد رسول الله!

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

ولله الحمد والشكر،،،

(١) النور: ٥٥.

(٢) الطلاق: ٣.

(٣) إبراهيم: ٢٤-٢٥.

الفهرس